المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الدمام – كلية الآداب للبنات

جامعة الدمام
UNIVERSITY OF DAMMAM

مادة البلاغة القرآنية

الفرقة الثالثة

المستوى السادس

د. منى بنت فهد النصر

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

❖ المحاضرة الأولى

مقدمة في (سحر القرآن للعرب)

وإن الإعجاز حقيقة تاريخية :

حينما نزل لقرآن الكريم شعر العرب في بداية الأمر بالحيرة والدهشة والعجز ، فزعموا أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين ، وأن النبي شاعر ومجنون ، وما ذاك إلا من تأثير القرآن فيهم ، هذا التأثير الذي كان أشبه شيءٍ بالسحر ..

يقول **سيد قطب** :«لقد سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى ، سواء منهم في ذلك منهم من شرح صدره للإسلام ، ومن جعل على بصره منهم غشاوة ، وإذا تجاوزنا النفر القليل الذين ، ومن جعل على بصره منهم غشاوة، وإذا تجاوزنا القليل الذين كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وحده، هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر، كزوجه خديجة، وصديقه أبي بكر، وابن عمه علي، ومولاه زيد، وأمثالهم، فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة يوم لم يكن لمحمد حول ولا طول، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة، وقصة إيمان عمر بن الخطاب، وقصة تولي الوليد بن المغيرة، نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولي، وكلتاهما تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى، وتُبِينان - في اتجاهين مختلفين- عن مدى هذا السحر القاهر، الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون ..» [1]

- **فأما قصة إسلام عمر** ففيها روايات كثيرة منها أن عمر خرج من بيته متوشحًا سيفه قاصدًا رسول الله ، يبحث عنه لقتله، وفي الطريق لقيه نُعَيم بن عبد الله ،وكان من المسلمين الذين أخفوا إسلامهم، وكان أيضًا من قبيلة عمر، من بني عدي فأوقفه نعيم ، وقال له: أين تريد يا عمر؟ قال : أريد محمدًا هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها؛ فأقتله . فلم يتمالك نفسه في أن يكشف له عن سر خطير؛ قاصدًا أن يلهيه به عن هذا الإقدام ، هنا قال نعيم مهددًا: والله لقد غرّتك نفسك يا عمر؛ أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا ؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ وفي فزعٍ، قال عمر: أي أهل بيتي ؟! قال : ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه ؛ فعليك بهما. فذهب إليهما عمر ،وهناك سمع خباباً يتلو عليهما القرآن ، فاقتحم الباب ، وبطش بختنه سعيد ، وشجَّ أخته فاطمة ... فقال لها ناولينى هذة الصحيفة ، فقالت له رضى الله عنها : أنت مشرك نجس إذهب فتوضأ ،ثم إقرأها ، فتوضأ عمر ، ثم قرأ الصحيفة ، وكان فيها : ﴿ **طه (١) مَا أَنزَلْنَا**

[1] التصوير الفني في القرآن : ١١

عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢)إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾

(طه : ١- ٦) يقول : لما سمعت القرآن **رق له قلبي ، فبكيت ودخلني الإسلام !**

وفي رواية أنه لما قرأها قال : (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !) ثم ذهب إلى النبي ﷺفأعلن إسلامه .

تلك قصة إسلام عمر **أما قصة الوليد بن المغيرة** : فيها رواياتٌ كثيرة ملخصها :

أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فقالت قريش: صبأ والله الوليد (تعني خرج عن دينه) ، ولتصبئون قريش كلهم فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا .قال : لم ؟ قال : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً لتعرض ما قبله ! قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا . قال فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له . قال : وماذا أقول ؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، و والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : قف عني حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل و أهله و مواليه ؟ وفي ذلك يقول القرآن الكريم: **﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرَ ﴾** (المدثر ١٨- ٢٤) ويقال أن الوعد الذي ورد في السورة **﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾** خاص بالوليد بن المغيرة .

سحرٌ يؤثر ، يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ... تلك قولة رجل يتقاعس عن الإسلام ويتكبر أن يسلم لمحمد- صلى الله عليه وسلم- ويعتز بنسبه ، وماله وولده ، وليست قولة رجل آمن ، فهو يعلل إيمانه بهذا السحر الذي لا يغلب ، وإنها لأدل على (سحر القرآن) للعرب من كل كلام يقوله المؤمنون ؛ لأنها لا تقال ولدى قائلها حيلة للسكوت عنه أو مفر من الاعتراف بها... !! **ومن هنا تلتقي قصة الكفر بقصة الإيمان في الإقرار بسحر القرآن !!**

- ولا تقل هاتين القصتين في الدلالة على هذا السحر ما حكاه القرآن عن قول بعض الكفار : **﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾** . (فصلت : ٤١)

روى البيهقي في دلائل النبوة أن أبا جهل وأبا سفيان بن حرب والأخنس بن شريق كانوا يتواصون ألا يستمعوا لهذا القرآن ، ويحذرون الناس أن يميلوا إلى سحره ! ولكنهم تحت تأثير لا يستطيعون مقاومته كانوا يتسللون ليلاً يستمعون إلى النبي وهو يقرأ القرآن في الكعبة ... فإذا انصرفوا تلاقوا

في الطريق فأخذوا يتلاومون ويتعاهدون ألا يعودوا .. وذلك خوفاً أن يقتدي بهم الملأ من قريش ، وفي الليلة الثالثة اجتمعوا وتلاقوا مستكرين ، فلما كان الصبح ذهب الأخنس بن شريق إلى أبي سفيان فقال له : أخبرني أبا حنظلة عما سمعت من بيان محمد ! فقال : لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف ما يراد منها ! فقال الأخنس : وأنا كذلك ، ثم انصرف إلى أبي جهل ليسأله عما سأل عنه أبا سفيان ، فقال أبو جهل في غيظ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف:أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! " .

إذن كانت هناك اعتبارات أخرى من ركام الجاهلية في المشاعر والتصورات منعتهم من الإذعان .

- **وعتبة بن ربيعة يتأثر بالقرآن** : روى ابن إسحاق أن عتبة بن ربيعة كان سيدًا في قومه ، وأنه قال يومًا - وهو في نادى قريش، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم- جالس في المسجد وحده- : يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورًا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة - رضي الله عنه- ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد، قُمْ إليه، فكلَّمه، فقام إليه عُتبة،حتى جلسَ إلى رسولِ اللهِ- صلى الله عليه وسلم- ،فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسِّطَةِ - أي المنزلة- في العشيرة، والمكان في النَّسبِ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم،وسفهت به أحلامهم،وعبت به آلهتهم ودينهم،وكفرت به من مضى من آبائهم،فاسمع مني أعرض عليك أمُورًا تنظر فيها؛ لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول - صلى الله عليه وسلم- :(**قل يا أبا الوليد أسمع**).

قال: يا ابن أخي،إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرَنا مالًا، وإنْ كنتَ تريدُ به شَرَفًا سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإنْ كنت تريدُ به مُلكًا ملكناك علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئْيًا- أي شيطاناً- تراه لا تستطيع ردَّه عن نفسك طلبنا لك الطبَّ .... - حتى إذا فرغ عُتبة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم- يستمعُ منه،قال: (**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**) قال: نعم، قال: (**فاسمع مني**)، قال: أفعل، فقال: (بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿**حم (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ**﴾(فصلت : ١- ٥) ثم مضى حتى قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ : أَنْذَرتُكُم صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُود** ﴾ عندئذ هب عتبة يمسك بفم النبي - ﷺ- في ذعر ، وهو يقول : ناشدتك الرحم أن تكف . . وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر .ويقول: وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب ،

فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

وفي رواية أنهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط! والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُهُ مُلككم، وعزُّهُ عزُّكم، وكنتم أسعدَ الناس به، قالوا: **سَحَرَكَ** –والله- يا أبا الوليدِ بلسانه ! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعُوا ما بدا لكم »

تمثل هذه الحادثة الشعور الذي يخامر العربي البليغ حين يستمع إلى القرآن يتلى ، فيرى نفسه أمام نمطٍ من الكلام لاعهد له بمثله في أسلوبه المتميز ، وطابعه المتفرد ، لقد أخذ عليه أقطار نفسه ، لقد بلغ من شدة التأثر أن ظن أن الصاعقة ستنقض عليه وقومه ، فأسرع بيده إلى فم النبي صائحاً : ناشدتك الرحم أن تكف !!

حادثة سجود المشركين مع النبي :

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن الرسول ﷺ : « سجد بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس »

إن سجود النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه أمرٌ غير مستغرب ، لكن الغريب في الحادثة سجود المشركين ، فإذا تأملته لم تجد فيه إلاّ ما ذكرنا من سحر القرآن ، وتأثيره العجيب في النفوس .

يقول سيد قطب : « سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان . . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون ! بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لي احتمال أنه لم يقع ... وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل . . كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع وننصت للقرآن الكريم . وكان صوته مؤثرا وهو يرتل القرآن ترتيلا حسنا . وشيئا فشيئا عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى الملأ الأعلى . عشت

معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته الملائكية. ذلك الحادث العجيب المدهش ! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة . عند سدرة المنتهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي ، وتحلق بي رؤاي ، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي . . وتابعته في الإحساس بتهافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها . . إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة ، التي تتهاوى عند اللمسة الأولى . ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات . وعلم الله يتابعها ويحيط بها . وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة . . الغيب المحجوب لا يراه إلا الله . والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء .. وحشود الموتى . وحشود الأحياء . والنطفة تهتدي في الظلمات إلى طريقها ، فإذا هي ذكر أو أنثى . والنشأة الأخرى . ومصارع الغابرين . والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى !

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهمة: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى . أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ**﴾. . ثم جاءت الصيحة الأخيرة . واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب:﴿**أَفَمِن هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُون . وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُون . وَأَنْتُم سَامِدُون ؟**﴾ فلما سمعت: ﴿**فَاسْجُدُوا للهِ واعبُدُوا**﴾. . كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقا إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته . فظل جسمي كله يختلج ، ولا أتمالك أن أثبته ولا أن أكفكف دموعا هاتنة ، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة ! وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح ، وأن تعليله قريب . إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة . ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها . ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت مني هذه الاستجابة ..... **وذلك سر القرآن . . !! »**

و لو ذهبنا نتتبع أمثال هذه القصص التي تكشف عن مدى الذهول الذي أصيب به العرب عند سماع القرآن لطال بنا المقام ، فحسبنا ما ذكر .

❖ **المحاضرة الثانية :**

(الإعجاز والقول الصحيح فيه) :

١- التحدي و الإعجاز :

قال الجاحظ : « بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعرًا وخطيبًا ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها و أدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الإقرار :الهوى والحمية دون الجهل والحيرة ، حملهم بالسيف ، فنصب لهم الحرب ونصبوا له ، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحًا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبًا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما زاد تحديًا لهم بها وتقريعًا لعجزهم عنها ، تكشف عن نقصهم ما كان مستورًا ، وظهر منه ما كان خفيًا .

فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، قال : فهاتوا مفتريات !! فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ..ولو تكلفه (أي لو استطاعه) لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من ستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض .

فدل ذلك على **عجز القوم** مع كثرة كلامهم واستقامة لغتهم ، وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة من هجاه منهم ، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه ، من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ..»

لقد كان القرآن معجزة النبي الخالدة ، وكان التحدي الحقيقي للعرب الذين برعوا في البلاغة والتعبير ، وجعلوا لبلاغتهم سوقاً أو أسواقاً موسمية يعرضون فيها بضاعتهم الأدبية .... ومن عجيب أمر القرآن أنه **طاول العرب في هذا التحدي**:

- فتحدّاهم في **المرحلة الأولى** أن يأتوا بمثله، فقال تعالى في سورة الإسراء المكية:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء :٨٨)

وفي الطور المكية أيضًا : ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ (الطور:٣٤) فعجزوا..

- ثم تحدّاهم في **المرحلة الثانية** بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، فقال تعالى في سورة هود المكية: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ**

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود :١٣)

فلما عجزوا هذه المرة أيضًا طاولهم مرة أخرى، وخفّف حجم التحدّي إلى أقلّ قدر يمكن أن يتمثل فيه الإعجاز؛ تحداهم بأن يأتوا بسورة منه ؛ فقال **تعالى في سورة** يونس المكية: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .** ﴾ (آية :٣٨)

ثم كرّر هذا التحدّي في سورة البقرة المدنية، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ (الآيتان٢٣- ٢٤)

وهم على رغم هذه المطاولة ينتقلون من عجز إلى عجز، ومن هزيمة إلى هزيمة.

معنى الإعجاز :

مرَّ كيف أن القرآن سحر العرب ، وسلب عقولهم ببيانه ونظمه وروعة معانيه الخالدة ، وهزَّ النفوس منذ آياته الأولى ، وكان الإعجاز هو روحه الخفية ، تسري في قارئه ، فينبعث فيه الإقرار النفسي بأنه كتابٌ إلهي ، أبدعته القدرة الإلهية ، وأن قوى الإنسان عاجزة عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرًا .

والإعجاز في اللغة من عجز : إذا عدم القدرة على الشيء . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ﴾ . **وفي الاصطلاح** : إثبات عجز البشر _ متفرقين ومجتمعين _ عن الإتيان بمثله .، **والمعجزة** هي الأمر الخارق للعادة ، المقرونة بالتحدي ، لتقوم حجة قاطعة بيد الأنبياء على صدق دعواهم في رسائلهم السماوية ..... **والمعجزات** إما حسية أو معنوية ، لكنها في كلٍ كانت تشترك بأنها تكون من جنس ما اشتهر به القوم ؛ لذلك كانت معجزة موسى العصا واليد ، وفلق البحر ، وتفجر الحجر بالماء الرواء ... لما كان قومه قد اشتهروا بالسحر !

وكان لعيسى إحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين ، وإبراء الأكمه والأبرص ، لما كان قومه قد برعوا في الطب ! أما النبي فقد كانت معجزته بيانية ؛ لما كان العرب أهل الفصاحة والبلاغة والبيان ، في ميدانها يتسابقون ، وفي حلبتها يتبارون ... والكتب السماوية معجزة بما فيها من أخبار الغيب ، ولكنها غير معجزة في أسلوبها ونظمها ما عدا القرآن الذي جمع بين الأمرين .[1]

الفرق بين معجزة النبي والأنبياء السابقين :

أولاً : معجزة الأنبياء السابقين معجزات مادية حسية تتناسب مع العصر والزمان الذي بعثوا فيه .

أما معجزة النبي فكانت روحية عقلية وهو البيان الخالد. يقول عليه الصلاة والسلام : (مامن نبي

[1] إعجاز القرآن للباقلاني : ١٩ ، ٢٠.

من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً) رواه البخاري .

ثانيًا : معجزة الأنبياء السابقين الحسيّة محدودة الزمان ، قصيرة الأمد ، ذهبت بذهاب زمانهم ، وماتت بموتهم ، أما معجزة النبي فكانت معجزة الإسلام الخالدة ، وحجته الباقية ، شاهدة بصدق الرسول ، ناطقة بعظمة الإسلام وخلود هذا الدين .

ولله در القائل :

جاء النبيّون بالآيات فانصرمت وجئتنا بكتاب غير منصرم
آياته كلما طال المدى جُدُدُ يزينهنّ جمال العتق والقِدم

والمعجزة العقلية تحار فيها العقول ، وتتسابق فيها الأقلام ، وتختلف فيها الآراء شأن إعجاز القرآن الكريم ، فلقد ألف فيه كثيرون ، منهم المفسرون والبلاغيون واللغويون والمحدثون وعلماء الكلام ،لذلك تعددت الآراء بتعدد العقليات التي تناولته .

وأول كتاب وسم بلفظة (**إعجاز**) ينسب لأبي عبدالله محمد بن يزيد الواسطي (ت : ٣٠٢هـ)، واسم كتابه (**إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه**) .أما أشهر الكتب التي خصصت لفكرة الإعجاز مؤلفاً خاصاً فتكاد تُعد على الأصابع ، مثل كتاب (**النكت في إعجاز القرآن**) ، و (**بيان إعجاز القرآن**) للخطابي، و (**إعجاز القرآن**) للباقلاني ، و(**الرسالة الشافية**) ، و (**دلائل الإعجاز**) لعبدالقاهر الجرجاني الذي كشف عن الرأي الوجيه في إعجاز القرآن الكريم ، وجعله في نظرية النظم التي وضح أسسها أرسى معالمها ، وانتهت إليها الدراسات في الإعجاز .

هؤلاء أهم العلماء القدماء الذين بحثوا الإعجاز مما سيأتي الحديث عن جهودهم وعرض آرائهم ،أما في العصر الحديث فأهم من أدلى بدلوه (**الرافعي ، وسيد قطب**) ؛ أما الرافعي فرد الإعجاز إلى ما سماه بـ (النظم الصوتي) وبتأثيره في النفوس - كما سيأتي - وأما سيد قطب فرأى أن منبع السحر في القرآن الذي أثر في ابن المغيرة وحوّل عمر بن الخطاب إلى الإسلام ليس في التشريع ، ولا الغيبيّات ، ولا العلوم الكونية ، ولا في الحديث عن الأمم السابقة ، إنما هو في صميم النسق القرآني ذاته ، الذي يتجلى من خلال التعبير الجميل المؤثر المعبر المصور ، مما لخصه في نظريته (**التصوير الفني**) . وفيما يلي تفصيل جهدهم في بحث الإعجاز :

❖ ❖ ❖

جهود العلماء في دراسة الإعجاز

أثار القرآن منذ اللحظات الأولى لنزوله حركة فكرية عند العرب،ودعاهم إلى الالتفات إليه ، لما جاء به من جديد في أساليب التعبير والبيان ، وعلقت أفئدتهم وأسماعهم به ، فلم يسعهم

إزاءه إلا التسليم بروعة الأثر ، وانشغلت به طوائف كثيرة من الناس،كلٌ من ناحية اهتمامه.فالمفسرون يتتبعون آياته ، والفقهاء يستخلصون منه أصول الشريعة ، واللغويون يبحثون في الألفاظ العربية والمعرَّبة،والغريبة وغير الغريبة ، والنحويون يستقصون وجوه الإعراب لآياته ، والبلاغيون يتتبعون بيانه و بديعه ، ورجال الفكر يلتقطون ما فيه من إشارات إلى مبادئ ونظريات.

ليس ذلك وحسب ، بل لقد أوجد القرآن علومًا مختلفة ، كانت في أصلها تتجه إلى خدمة القرآن وجلاء معانيه ، ثم استقلت هذه العلوم ، واتخذت لنفسها مسارًا خاصًا يأتلف مع القرآن ولا يختلف ، ويتحد ولا يفترق ، حتى إذا امتدت لهذا العلم فروعه وترامت إلى آفاق بعيدة،ظلت جميعها تنظر إلى الأصل،وتتقيد به خشية أن تضل أو تحيد.

كان **علم التفسير** أول العلوم التي نشأت لخدمة القرآن ، وكان للمفسرين مذاهب تتفق وهوى أصحابها ، و اتجاهاتهم ، وأهواءهم ، ومذاهبهم. فاللغويون والنحويون منهم طبعت كتبهم باسم (**معاني القرآن**) فالكسائي ، و الأخفش ، والمازني ، والفراء ، والزجاج ، وأبو علي الفارسي ، وأبو جعفر النحاس كتبوا كتبًا تحمل كل منها اسم(**معاني القرآن**) وفيها مزج بين النحو واللغة، وأفرد علماء آخرون اللغة وحدها دون النحو ، فألفوا كتبًا تحمل عنوان (**غريب القرآن**) كما فعل أبو عبيدة معمر بن المثنى ، و الدَّوسي ، وابن قتيبة ، واليزيدي ... وغيرهم .

وتخير علماء آخرون جوانب معينة في اللفظ القرآني ، فوجهوا إليها عنايتهم اللغوية مثال ذلك كتاب : (**لغات القرآن**) للأصمعي ، و(**لغات القرآن**) للفراء وأبي زيد الأنصاري ، ثم (**المصادر في القرآن**) للفراء أيضًا ، وكتاب (**الجمع والتثنية**) له كذلك ، ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه (**مجاز القرآن**) ، والجاحظ في كتابه (**نظم القرآن**) وابن قتيبة في كتابه (**تأويل مشكل القرآن**) على تفاوت بينهم.

١- **فأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠هـ في كتابه (مجاز القرآن)** يمثل التيار اللغوي مع آثار قليلة من آثار البحث البياني ، وإذا كان لم يتوسع في البحوث البيانية فلأنه ألفه في وقت مبكر نسبيًا ،حيثُ أُلف **سنة ١٨٨هـ** ، ويعتبر هذا الكتاب مرحلة أولية من مراحل الكشف عن إعجاز القرآن و بلاغته كما يعتبر مرجعًا لكثير من الدراسات اللغوية والأدبية التي جاءت بعده . وكلمة (**مجاز**) يقصد بها البحث في الغريب وما يجوز بلاغيًا .

يقدم أبو عبيدة لكتابه بمقدمة في بحوث عامة في القرآن ، ثم يتناول السور والآيات تناولًا تنازليًا، يبدأ بسورة الفاتحة ، ثم البقرة وهكذا. وطريقة ترتيبه واضحة حيث يبدأ شرح الآية بآية أخرى ما أمكن ، ثم يتبعها بحديث في المعنى نفسه ، ثم بشاهد شعر قديم ، أو بكلام العرب الفصيح كالخطب والأمثال والأقوال المأثورة. ويحرص على أن يؤكد دائما صحة أسلوب القرآن وفنون التعبير فيه بأساليب العرب و فنونهم فيذكر دائما في ختام كلامه « أن العرب تفعل هذا».

٢- **ويعتبر (معاني القرآن) للفراء** دراسة مكمّلة - من الناحية اللغوية – لكتاب (مجاز القرآن) ؛ لأنه يبحث في التراكيب والإعراب ، ، وكلتا الدراستين متعلقتان بالأسلوب .

ويتبع الفراء في كتابه المنهج الذي اتبعه أبو عبيدة ، حيث يبدأ بسورة الفاتحة ، ثم البقرة... وهكذا تنازليًّا ، ويتعرض لآيات كل سورة آية آية بالترتيب شارحًا ومفسرا لغريب الألفاظ ، ويزيد على أبي عبيدة بوقوفه عند القراءات المختلفة،كذلك يتبع طريقة أبي عبيدة في تفسير الآيات بالآيات أولا ، ثم بالحديث إذا وجد ، ثم بالشاهد الشعري ، أو بالمثل ، أو بالكلام الفصيح ، ولقد تطرق الفراء في (**معاني القرآن**) إلى أبحاث بلاغية كالكناية ، والتشبيه ، والمثل ، والمجاز ، والاستعارة ، والانتقال من مخاطبة الشاهد إلى الغائب ، والتقديم والتأخير ، وأبحاث أخرى .

إن الذي يميز كتاب الفراء من سابقه هو عناية صاحبه بالناحية الموسيقية في نظم القرآن، والتوقيع الرتيب فيه، وملاحظة النسق الصَّوتي فيه وتتبُّعه.

وتطورت الدراسات المختلفة بتطور الزمن ، واشتبكت بالحضارة الجديدة ، وما حملته من فكر ، وتيارات ، وفلسفات ، ومذاهب ، وعلوم . واختلفت نظرة الدارسين إلى إعجاز القرآن باختلاف العلماء واتجاهاتهم .

١- **فالنَظَّام** أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلي:(المتوفى في ٢٠٠هـ) تأثر بكتب الفلاسفة ، و بالثقافة الهندية والفارسية واليونانية ، وتعلم المسيحية ولاهوتها ، وكان بطبعة ميالًا إلى التجربة والقياس ، ولا يقبل التسليم بالمنقول والمأثور ، وألمَّ بالثقافة العربية ، فحفظ القرآن ، ونظر فيه ، وفي تفسيره ، فخالف أصحابه من المعتزلة كما خالف أهل السنة الذين يقولون : إن إعجاز القرآن في نظمه ، وحسن تأليفه ، وإنه محال وقوع مثله من العرب ، فرأى أن إعجاز القرآن في إخباره عن الغيوب ، وفي **الصَرْفة : أي أن الله تعالى قد صرف الهمم عن معارضة القرآن ، يقول : « فقد كان يجوز أن يقدر عليه العبادُ لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم»**

هذه النظرية عرفت بنظرية (**الصرفة**) المشتقة من صرف الله عقول العرب عن محاكاة القرآن ... وطارت هذه النظرية في الآفاق، وناقشها كثيرون ، وألفت الكتب في الرد عليها .

٢- **الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ في كتابه(نظم القرآن)** : كان أول من خرج على النظام تلميذه (الجاحظ) المعتزلي ، وكتب في الرد عليه كتابه (نظم القرآن) .

ونأسف لعدم وصول (**نظم القرآن**) إلينا وضياعه ، وهو عمدة الدراسات في هذا الموضوع ، لكن يمكن تصور رأى الجاحظ في إعجاز القرآن بتتبع آرائه في كتبه التي وصلت إلينا ، ففي كتابه (**حجج النبوة**) يتحدث عن معجزات الأنبياء ومعجزة محمد ﷺ، وينتهي إلى أن معجزة القرآن أكبر المعجزات ، ثم يرى الجاحظ **أن الإعجاز متصل بالنظم وحده**- بصرف النظر عما يحويه القرآن من معاني- إذ طلب الله تعالى إليهم أن يأتوا بعشر سور من مثله في النظم والروعة في التأليف، حتى ولو حوى التأليف الرائع كل باطل ومفتري لا معنى له « فما بال القرآن ... جمع إلى

النظام الرائع المعاني الفائقة ؟ »

وفي كتاب (**البيان والتبيين**) نعثر على رأي الجاحظ في :

١- **دقة اللفظ القرآني** الذي أولاه التنزيل عناية خاصة ، فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة ، وقد يشترك لفظان في المعنى لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه ، ولنظم القرآن براعته في تنزيل اللفظ منزلته في الموضوع الذي أريد له، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالًّا على معنى واحد ، وإنما للدلالة على معانٍ مختلفة. يقول الجاحظ : « وقد يستخِفُّ الناس ألفاظًا ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن (**الجوع**) إلا في موضع العقاب ،أو في موضع الفقر المدقع،والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السَّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر (**المطر**) لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والأمَّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين الغيث.ولفظ القرآن إذا ذكر (**الأبصار**) لم يقل (الأسماع)، وإذا ذكر (**سبع سموات**) لم يقل (الأرَضِين) ، ألا ترى أنه لا تجمع الأرض على أرَضِين ، ولا السمع أسماعًا والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، ولا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال ، وقد زعم بعضهم أنه لم يرد ذكر (**النكاح**) في القرآن إلا في موضع التزويج» .

٢- **أن** في ألفاظ القرآن ميزة أخرى- من حيث النظم – وهي أن **بعض الألفاظ تأتي متصاحبة دائمًا لا تكاد تفترق** مثل : (الصلاة والزكاة) و(الجوع والخوف) و(الجنة والنار) و(الرغبة والرهبة) و(المهاجرين والأنصار) و(الجن والإنس).

٣- وتحدث عن الإعجاز القرآني في : **الاستعارة ، والتشبيه ، والمجاز والإيجاز** ، وأورد نصوصًا قرآنية كثيرة ، و استجلى جمالها ونظمها وإعجازها.

٤- والتفت التفاتة طويلة إلى الوقع الصوتي للقرآن وأثره في النفوس

وبذلك ضرب عُرض الحائط بنظرية أستاذه النَّظَّام الذي لم يقم وزنا لنظمه .

٣- ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦هـ

وقد كان على رأس الفريق السني الذي مثل أهل الحديث والسنة، ألف كتبًا كثيرة منها : (الشعر والشعراء) و(تأويل مختلف الحديث) و (الرد على الجهمية والمشبهه)..... وغيرها، وأهمها: (**تأويل مشكل القرآن**) ؛ حيثُ وقف أمام المعتزلة ورد عليهم في مسألة الرواية، لأنهم يعتمدون على الرواية وينكرون الإجماع ، وأخذ عليهم تفسيرهم القرآن حسب هواهم وعقيدتهم- وإن خالف ذلك اللغة- . يقول ابن قتيبة: « و فسّروا - والضمير يعود على المعتزلة - القرآن بأعجب تفسير ، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم . ويحملوا التأويل على نحلهم فقال فريق منهم في قوله تعالى:

﴿ **وسعَ كرسيُه السمواتِ والأرض**﴾ أي: (علمه). وجاءوا على ذلك بشاهد لا يُعرف ، وهو قول

الشاعر: (ولا يُكرْسئُ علمَ اللّهِ مخلوق) أي لايعلم علم الله مخلوق والكرسي غير مهموز ، ويكرسئ مهموز ، يستوحشون أن يجعلوا لله كرسيًّا ».

ومن جوانب الإعجاز الأخرى التي تحدث عنها ابن قتيبة :

١- **نظم الألفاظ** ، وضمها بعضها إلى بعض في تأليف دقيق بينها وبين المعاني.

٢- **النغم الموسيقي** ، ويشمل الإيقاع الداخلي في الآيات ، وهو الذي ينجم من تآلف الحروف ، ومن الفواصل و اطرادها ، أو اختلافها.

٣- **سمو بيانه عن بيان العرب وفنون بلاغهم .**

٤- **العلوم والمعاني التي ضمها، وكونها زبدة الشرائع السماوية.**

٥- **ما فيه من دلائل الألوهية ومظاهرها المختلفة في الكون.**

٦- **الأثر النفسي** للقرآن ، الذي يثير الوجدان، ويهز القلوب .

تلك الكتب العامة التي عددناها كـ (**معاني القرآن**) ، و(**مجاز القرآن**) ، و(**نظم القرآن**) ، و (**تأويل مشكل القرآن**) كانت دراسات جامعة شاملة عامة ، تناولت موضوع إعجاز القرآن من جملة ما تناولت في أبحاثها المختلفة.

وفي أواخر القرن الثالث وطوال القرن الرابع للهجرة ظهرت (**دراسات مستقلة في الإعجاز**) مستندة إلى ما سبقها من مؤلفات ، ومستفيدة مما جاءت به من فِكَر ... من هؤلاء :

محمد بن يزيد الواسطي ، وعلي بن عيسى الروماني ، وحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلّاني.

وتمتاز هذه الدراسات عن دراسات القرن الثالث بأنها محاولات خاصة ومستقلة وظلت هذه الدراسات تورق،وتزهر ، وتثمر طوال القرن الرابع،والقرون التالية وتزداد سعة ونشاط على مر الأزمان حتى بلغت مقدرة بعض الدارسين درجة رفيعة ، وأصبحت بعض دراساتهم في تحليل نصوص القرآن نماذج أدبية لكل ناقد أدبي ، ومرجعا لكل باحث في خفايا التعبير العربي. فاستفاد النقد ، والبلاغة والأدب العربي بوجع عام من ذلك أيما استفادة ولا سيما كتاب (**دلائل الإعجاز**) للجرجاني و(**المثل السائر**) لابن الأثير فيما بعد ..

١- **محمد بن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هـ في كتابه (إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه**) عالم معتزلي ، عاصر النَّحويَّ قُطرب . وله مؤلفان : (الإمامة) و (إعجاز القرآن) ويقال : إن عبد القاهر الجرجاني شرح (الإعجاز) شرحين ، أحدهما كبير وسماه (المقتضب) والآخر صغير. لكن كتابه للأسف قد ضاع ، ولم يمكن العثور عليه ، ولا على شروحه .

ويظهر أن كتاب الواسطي على شيء غير قليل من الأهمية ؛ لاهتمام الجرجاني به، وتناوله له بالشرح مرتين ، ولا يستبعد أن يكون قد تأثر به في كتابيه .

٢- **الرُّماني : أبو الحسن علي بن عيسى** ، المتوفى سنة ٣٨٤هـ،أو ٣٨٦هـ ، **له رسالة في الإعجاز هي : (النكت في إعجاز القرآن)** معتزلي مفسر ، من كبار النحاة ، له نحو مائة مصنف ، بحث إعجاز القرآن البلاغي. وقد حدد المؤلف هدفه في مقدمة رسالته حين تدرج من قضية الإعجاز عامة إلى الإعجاز البلاغي . وتناول هذه الناحية الأخيرة ووضعها في أعلى مراتب البلاغة ، ووصف بلاغة القرآن بأنها بلاغة معجزة ؛ لأنها بلغت أقصى ما يمكن أن يصله التعبير باللسان العربي ، فبلاغة البلغاء مهما بلغت فهي ممكنة ، لكن بلاغة القرآن معجزة وليست في مقدور أحد .

وجوه إعجاز القرآن عنده تظهر من سبع جهات:

١/ ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

٢/ والتحدي للكافة.

٣/ والصرفة.

٤/ والبلاغة.

٥/ والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة.

٦/ ونقض العادة.

٧/ وقياسه بكل معجزة.

(فأما **البلاغة فهي على ثلاث طبقات** : منها ما هو في **أعلى طبقة** ، ومنها ما هو في **أدنى طبقة** ، ومنها ما هو في **الوسائط** بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة **فهو معجز** ، وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك **فهو ممكن** كبلاغة البلغاء من الناس وليست البلاغة إفهام المعنى... وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ).

والبلاغة على عشرة أقسام : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس ، والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان.

وقد خصّص الرُّمَّاني لكل قسم منها بابًا منفصلًا ذكر فيه سماته البلاغية، مستشهدًا بالآيات القرآنية ، ويقارن بين ما جاء به العرب وما جاء به القرآن ، **وينتهي إلى ما بينهما من تفاوت في مستوى التعبير،وجمال التصوير ، وروعة الأدآء القرآني.**

٣- **حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي** والخطابي هذا منسوب إلى زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب وقد توفي سنة ٣٨٨هـ **ورسالته : (البيان في إعجاز القرآن)** .

كان محبًا للعلم ، ساعيًا إلى تحصيله في شرقي البلاد الإسلامية وغربها ، وتتلمذ للرجال البارزين في عصره ، كما تتلمذ عليه كثير من الرجال المشهورين ، وله كتب عدة ، معظمها في الحديث والفقه. منها : (معالم السنن)، و(غريب الحديث) ، و(تفسير أسماء الرب عز وجل أو شرح أسماء اللّه الحسنى) ، و(شرح الأدعية المأثورة)،و(شرح البخاري)، و(كتاب العزلة)، و(إصلاح خطأ المُحدِّثين) ، و(أعلام الحديث) ، و(معالم التنزيل).... وغيرها .

يقرر الخطابي في رسالته أن الناس قديمًا وحديثًا ذهبوا في موضوع الإعجاز كل مذهب من القول ، ولم يصدروا عن ريّ ، ويناقش آراء العلماء في عصره في الإعجاز : (فكرة الصرفة) و(فكرة تضمن القرآن للأخبار المستقبلة) ، (والقائلين بأنها في البلاغة تقليدًا)

أما الصرفة فلأن المعجزة تتحدى الطاقات الروحية الكامنة في البشر، وقد أبقى الله على العرب طاقاتهم النفسية وملكاتهم العقلية، فلم يفقدوا يوما القدرة على البيان والإفصاح عن مكنون النفس .

وأما الأخبار عن الغيب فلا يُشكُّ في أن هذا وما أشبهه نوعٌ من أنواع إعجازه، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن !

وأما **موضوع البلاغة** ، فيعيب على القائلين بها اعتمادهم على التقليد، وقصور كلامهم عن الإقناع . ويعالج هذا الموضوع على طريقته. فيذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود ، ويقرر أن بلاغات القرآن قد أخذت من كل قسم من هذه حصة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الضخامة والعذوبة .... وإنما تعذر على البشر الإتيان بمثله،لأن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة وأوضاعها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ،ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع النظوم التي بها ائتلافها وارتباطها بعضها ببعض.

يقول كاشفًا عن رأيه في الإعجاز : « وإنما صار القرآن معجزًا ؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف. مضمَّنا أصح المعاني من توحيد وتحليل وتحريم..... ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر »

ويفنّد الخطابي بعض ما أورده المعترضون من شبه ضد القرآن.ومن الطريف في كتاب الخطابي ما أورده من تحليل بعض النصوص تحليلًا فنيا جميلًا ، يكشف فيه عن ذوق وبصر بمواطن الجمال في الكلام. وقد أثبت في آخر رسالته وجها آخر للإعجاز ذهب عنه الناس- كما يقول –وهو :

« **صنيع القرآن بالقلوب ، وتأثيره في النفوس**» وهذه الفكرة هي التي دار حولها الجرجاني في (الأسرار) و(الدلائل) إذ اعتبر مصدر البلاغة في الكلام تأثيره في النفوس.

٤- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلّاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ ، وكتابه (إعجاز القرآن) : له مصنفات كثيرة زادت على خمسين كتابا. وكان من أعلام المتكلمين على مذهب أبي الحسن الأشعري ، كما كان خطيبًا بارعًا. ومجادلًا قوي البيان والحجة ، عالي القدر في علوم القرآن والسنة والكلام. تعرض لكثير من المعارضين والمخالفين ، وقارعهم الحجج ، وجادل علماء الروم وظهر عليهم ، مما أثار إعجاب معاصريه ، يستهل كتابه بـ :

التعرض لمطاعن الملاحدة على أسلوب الذكر الحكيم ، مبينا أن الحاجة إلى الحديث في إعجاز القرآن أمس من الحاجة إلى المباحث اللغوية والنحوية.

وينعي الباقلاني على المؤلفين القدماء تقصيرهم في بيان وجه إعجاز القرآن،ويشير إلى أن الجاحظ صنف في نظمه كتابا ، وأنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى. ويصرح بأنه سيضيف إلى من سبقوه ما يجب وصفه من طرق البلاغة ، وسبل الفصاحة. ويجعل **أول فصل فيه لبيان أن القرآن معجزة** محمد ﷺ وهي معجزة تقوم على بلاغته، ويستشهد لذلك بآي من الذكر الحكيم ، ويفتح فصلا ثانيا يسوق فيه الحجج على إعجاز القرآن ، و يرد ردا عنيفا على من عللوا الإعجاز القرآني بـ (**الصرفة**) ، ولأن ذلك يقتضي أن المعارضة ممكنة ، وإنما منها الصرفة. وبذلك يسقط أن يكون القرآن معجزا في نفسه وببلاغته. وواضح أنه يرد على المعتزلة من أمثال النظام مبتدع الفكرة والرماني الذي عد الصرفة من وجوه الإعجاز القرآني.

ثم يفتح فصلا لـ (**بيان وجوه الإعجاز القرآني في رأيه ورأي الأشاعرة من أصحابه**) ويردها إلى ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : تضمن القرآن الإخبار عن الغيب.

الوجه الثاني : إتيان القرآن بجملة ما حدث من بدء الخليقة إلى حين بعثة الرسول ﷺ مع كونه أميا ، لا يعرف شيئًا من كتب السابقين وأنبائهم.

الوجه الثالث : بديع نظمه ، وعجيب تأليفه ، وتناهيه في البلاغة.

ويجمل نظريته في إعجاز القرآن البلاغي فيقول: (**إنه بديع النظم ، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه**) . وهو يتأثر في الشطر الأول في نظريته بـ (**فكرة الجاحظ**) التي ذهب فيها إلى أن مرجع الإعجاز في القرآن إلى نظمه وأسلوبه العجيب المباين لأساليب العرب في الشعر والنثر . أما الشطر الثاني من نظريته فيتأثر بـ (**فكرة الرماني**) الذي ذهب إلى أن القرآن يرتفع إلى أعلى طبقة من طبقات البلاغة .

ويقول : إنه مخالف للمألوف من كلام العرب ، وله أسلوب يباين أساليبهم في الكلام الموزون والمنثور، تطرد فيه البلاغة اطرادا دون أي تفاوت ، بخلاف كلام الفصحاء. فإنه يتفاوت من موضوع إلى آخر ، ومما يكشف عن روعته أن الكلمة منه إذا ذكرت في تضاعيف كلام تتألق بين جاراتها تألقًا. ثم عقد فصلًا لـ (**نفي الشعر عن القرآن**) وتلاه بفصل ثانٍ عن : (**نفي السجع عنه**) ، وشنَّع على القائلين بوقوعه في القرآن ، إذ الفواصل تتبع المعنى ، أما السجع فيتبعه المعنى ، ومن أجل ذلك يتضح فيه التكلف والثقل.

ثم عقد فصلا طويلا لـ (**وجوه البديع**) ، ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن. وانتهى إلى القول : « **إنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذي ادعوه في الشعر ووصفوه فيه ، وذلك أن هذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه**

بالتعليم ، والتدرب به ، والتصنع له... »

ويتحدث بعد ذلك عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن ، ويقول : إنه لا يقف عليه إلا من عرف معرفة بينة وجوه البلاغة العربية ، وتكونت له فيها ملكة يقيس بها الجودة والرداءة في الكلام بحيث يميز بين نمط شاعر وشاعر ، و كاتب وكاتب ....

ويسوق أمثلة من خطب الرسول وصحبه ليبين الفرق بين القرآن وكلامهم ، كما يسوق معلقة امرىء القيس ،فيدرسها ويبين ما فيها من عوار وتكلف وحشو وخلل وتطويل غريب ، وتفاوت بين أبياتها في الجودة والرداءة والسلاسة والغرابة ؛ ليخرج بنتيجة وهي أن القرآن متساوق النظم ، وهذا التساوق في جميع سوره وآياته ، بينما يتفاوت كلام البلغاء من الشعراء حتى في القصيدة الواحدة.

ثم يعقد فصلا بعنوان (وصف وجوه البلاغة) ، وفيه يلخص الوجوه العشرة للبلاغة ، التي صورها الرماني ، و يعارضه معارضة شديدة ،فبينما كان الرماني يرى أن من وجوه إعجاز القرآن بلاغته ؛ يرفض الباقلاني ذلك الرأي ، ويدعي أن البلاغة قسمان: قسم يمكن تعلمه ، وهذا لا يفسر به إعجاز ، وقسم لا يمكن تعلمه ، وهو المعجز. فليس التشبيه أو الاستعارة أو التجنيس بحد ذاتها معجزة ، **وإنما الإعجاز هو صوغ العبارة أو نظمها صوغا لا يمكن لبليغ أن يأتي بمثله .**

والخلاصة إن الباقلاني لم يزد على ما ذهب إليه الجاحظ من نظرية نظم القرآن وما ذهب إليه الرماني من بلاغة القرآن الرفيعة .

❖ **المحاضرتان الثالثة والرابعة**

النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني :

(صاحب النظرية ، مفهومها عنده)

نظرية النظم نظرية لها دورها الجليل في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية النقدية ، كما أن لها أهميتها التي لا تخفى على أرباب البيان في معرفة سر إعجاز القرآن ، ولهذا تحتل هذه المساحة في مقرر البلاغة القرآنية ... رائد هذه النظرية هو إمام البلاغين، وشيخ البيانيين : الإمام عبد القاهر الجرجاني .

فمن هو الإمام عبد القاهر الجرجاني؟!

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، ولد مطلع القرن الخامس في جرجان، وهي مدنية بين طربستان وخرسان، وليس بالمشرق أجمع ولا أظهر حسناً منا، خرَّجت الكثير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء ، وكانت القرنين الرابع والخامس تزخر بنشاطٍ علمي واسع .

وكان تلميذاً لابن أُخت أبي علي الفارسي، وليس له أستاذٌ سواه ، ولهذا نجده أولع بدراسة (الإيضاح) لأبي على الفارسي تلخيصاُ وشرحاً واختصاراً ، من مؤلفاته النحوية : التكملة ، العوامل المئة ... وغيرها ، وقد كانت شهرته في النحو قد فاقت شهرته البلاغية ، ومما يدل على منزلته ومكانته العلمية أن تصدر بجرجان لتدريس النحو وعلوم البيان ، وكان من أكابر النحويين ، وله دراسات قرآنية ومؤلفات في الإعجاز، وهي:

- شرح الفاتحة ولكنه لم يصل إلينا.
- درج الدرر في تفسير الآي والسور.
- المعتضد ، وهو الشرح الكبير لكتاب الواسطي في إعجاز القرآن ، سماه بعضهم (إعجاز القرآن).
- الشرح الصغير لهذا الشرح .
- الرسالة الشافية ، وهي في الإعجاز ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ألفها لإثبات عجز البشر والعرب خاصة عن معارضة القرآن ، وفي دحض شبه الطاعنين في القرآن .

وله في مجال الدراسات البلاغية : (أسرار البلاغة) – (دلائل الإعجاز) اللذان أشار المتأخرون إلى قيمتهما وعظم أهميتهما. وأهمية الدلائل تكمن في أنه ألفه سعياً إلى إثبات أن بلاغة الكلام

تكون في النظم ، وأن القرآن معجز بالنظم لا بالصرفة ؛ لذلك نراه يكرر ويعيد الحديث عن النظم ، ويكثر من الأمثلة والشرح ليقرب الفكرة ، ويقنع بها الناس .

ولم يكن في الدلائل منهج واضح من حيث الأبواب والفصول ، ولذلك نقده المتأخرون من المعاصرين ، وأتهم بأنه ممزق ، تتفرق فيه المسألة الواحدة في أماكن متعددة متباعدة .

يقول د.أحمد مطلوب : « ولا نظن أن الأمر كذلك ، فكتاب دلائل الإعجاز كله موضوع واحد أو فكرة واحدة أجملها في مدخل كتابه ، ثم شرع يبرهن عليها في الكتاب كله متخذاً لذلك رسائل مختلفة، منها: عرض النصوص وتحليلها ، ومنها: الجدل العقلي والمنطق السليم ، ومنها: التأثير النفسي والإحساس الروحاني ، وقد جمع في هذا الكتاب بين النزعتين العلمية والأدبية ، ولكن الأولى أشد وضوحاً وأكثر تأثيراً . وقد أثر الكتاب في الدراسات القرآنية والبلاغية ، فقد اتخذه الزمخشري أساساً في تفسيره ، وتبنى نظريته ، فطبقها على القرآن في تفسيره له ، وجعله السكاكي أساساً له في علم المعاني ، ووضع قواعده .

ولكن الغريب – كما تقدم – أنه على الرغم من اهتمام عبد القاهر بأسلوب القرآن الكريم ونظمه، وتألفيه الكتب للرد شبه الطاعنين فيه ، وعلى الرغم من مؤلفاته البلاغية إلا أن القدماء لم يهتموا بها ، ولا نكاد نجد لها ذكراً إلا عند المتأخرين ك (طاش كبري زاده) الذي قال: " لو لم يكن له سوى كتاب أسرار البلاغة و دلائل الإعجاز لكفاه شرفاً وفخراً».

مفهوم النظم عنده:

لقد فند عبد القاهر آراء من يرون مزية لّلفظ في ذاته، أو المعنى وحده، ووضح أن الألفاظ المفردة، من حيث أصواتها أو معانيها، لا دخل لها في الإعجاز، ولا في باب الفصاحة، ولو وضح ذلك لما كان للقرآن فضل على غيره من الكلام، ولبطل إعجازه البلاغي. ... فما مرد الإعجاز عنده إذن ؟ وما مرجع المزية والفصاحة؟

إنه النظم. يقول عبد القاهر في توضيح ذلك : « وهل تجد أحدا يقول: هذه اللفظة فصية إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه: قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم يصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها »

فالإعجاز القرآني يرجع إلى شئ آخر، وراء الألفاظ المفردة، ومعانيها اللغوية، إنه نظم الكلام، أو العلاقات بين المفردات، وفرق بين نظم الكلام ونظم الحروف، فنظم الحروف « هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل،

اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال: ربض، مكان: ضرب، لما كان في ذلك ما يؤدى إلى فساد، أما نظم الكلام فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفى في نظمه آثر المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشئ إلى الشئ كيف جاء واتفق »

إنه تعليق الكلام بعضه ببعض،وهو تأليف الكلام وترتيبه بحسب ما يقتضيه علم النحو، تبعا لترتيب معانيه في النفس . يقول عبد القاهر:« **واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التى نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التى رسمت لك، فلا تخل بشئ منها...**»

ولايقف عند هذا الحد ، بل يشرح **المراد بعلم النحو، الذي ينبغي على الناظم أن يضع كلامه الوضع الذي يقتضيه**،« إنه النظر في وجوه كل باب وفروقه، أن تنظر **في الخبر** إلى الوجوه التى تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، **وفي الشرط** إلى الفروق التى تراها بين قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج، **وفي الحال** إلى الوجوه التى تراها في قولك: جاء زيد مسرعا، وجاء وقد أسرع، وجاء يسرع، وجاء وهو يسرع، وجاء وهو مسرع، **فتعرف لكل من ذلك موضعه وتجيء به حيث ينبغي**، وتنظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية، فتضع كلا منها في خاص معناه، نحو أن تجئ بـ (**إن**) فيما يترجح أن يكون و ألا يكون، وبـ (**إذا**) فيما علم أنه كائن، وتنظر **في الجمل التى تسرد** فتعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم تعرف فيما حقه الوصل، موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثم، وموضع أو من موضع أم، **وتتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فتضع كلا من ذلك مكانه، وتستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي.** »

إنه يقصد بعلم النحو وقوانينه: العلاقات بين المفردات والجمل، وما يكمن وراء التعبيرات والصيغ من مزايا و أسرار البلاغية، ينبغي أن تراعى، وأن يلتفت إليها البلاغي، فيبنى كلامه البناء الذي تتحقق فيه تلك المزايا، ويصوغه الصياغة التى تسطع فيها هذه الأسرار، وذلك بأن يرتب في نفسه أفكاره وخواطره، والمعاني التى يريد التعبير عنها، ثم تجئ الأبنية والصيغ على وفق ترتيب المعاني في النفس، فالكلمات المفردة لا اعتداد بها في ميدان البلاغة والفصاحة، وإنما الاعتداد إنما هو بتأليف الكلام ونظمه على صورة مخصوصة تفيد غرضها أو بمعنى آخر.

الألفاظ إذن لا نتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، وإنما من حيث ملاءمة معنى الكلمة لمعنى

التى تليها، ومما يشهد لذلك أنك نرى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها نثقل عليك وتوحشك في موضع آخر.

نأمل كلمة (**الأخدع**) في قول الحماسي:

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتا و**أخدعا**

وفي قول البحتري:

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع **أخدعى**

فإن لها في هذين الموضعين مالا يخفي من الحسن...

ثم تأملها في قول أبي تمام:

يا دهر قوم من **أخدعيك** فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

تجد أن لها من الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت لها هناك من الخفة والإيناس ، وانظر إلى كلمة (شئ) في قول عمر بن أبي ربيعة:

ومن مالئ عينيه من **شيء** غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وفي قول أبي حية النميرى:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه **شيءٌ** لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول، ثم انظر إليها في قول المتنبي:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه **شيءٌ** عن الدوران

فإنك تراها نثقل وتكره وتسخف وتضؤل بمقدار ما حسنت هناك وخفت..

ولكي تزداد يقينا بأن الكلمات المفردة لا شأن لها بالمزية، أقرأ ما تشاء من آى الذكر الحكيم . اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ هود: ٤٤.

وتأمل، وعندما تتأمل، ويتجلى لك الإعجاز، فستجد أن الذي وجدته من المزية والفضيلة، لا يرجع إلا إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، والتقاء تلك المفردات على النحو الذي التقت عليه، فقد نوديت **الأرض**، وكان النداء بيا دون أى، فلم يقل: (يا أيتها الأرض) وأمرت، وأضيف الماء إلى الكلف دون أن يقال: (ابلعي الماء) ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها

كذلك بما يخصها، ثم قيل (وغيض الماء) فجاء الفعل على صيغة فعل بالبناء للمفعول، الدالة على أنه لم يغض إلا بآمر آمر، وقدرة قادر، ثم أكد ذلك وقرر بقوله (وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور فقيل: (واستوت على الجودي) وأضمرت السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن، ثم قوبلت (قيل) في الخاتمة بقيل في الفاتحة... أفترى شيئا من هذه الخصائص التى تملؤك بالإعجاز روعة، يتعلق باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق؟ أم أن كل ذلك يرجع إلى ما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟..وانتزع لفظة من هذه الألفاظ، وأفردها عن أخواتها، ثم انظر هل تؤدي من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل"ابلعي"واعتبرها وحدها دون أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، هل ترى لها من المزية والبراعة ما تراه لها وهي في سياقها من النظم الكريم؟

وبذلك يتضح لك بما لا يدع مجالا للشك أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة،

مفردة، بل تثبت لها الفضيلة وخلافها بملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ... »

شواهد تطبيقية شعرية على نظرية النظم :

ويكثر الإمام عبد القاهر من عرض الشواهد والنماذج التي يبرز من خلال تحليلها أن المزية مردها إلى النظم ، وأن الكلمة المفردة لا مزية لها إلا من خلال نظمها الذي سلكت فيه ، ومن ذلك قول البحتري يمدح الفتح بن خاقان :

بلونا ضرائب من قد نرى فما أن رأينا لفتح ضريبا
هو المرء أبدت له الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل في خلقي سؤدد سماحا مرجى وبأسا مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا

يذكر عبد القاهر أن : مرجع المزية في الأبيات إلى إنه قدم وأخر،وعرف ونكر، وحذف وأضمر ، وأعاد وكرر ، وتوخي على الجملة ، الوجوه التي يقتضيها علم النحو ، فأصاب في ذلك ، ولطف

موضع صوابه ، يقول : « ألا ترى أن أول شيء يروقك في هذه الأبيات قوله : هو المرء أبدت له الحادثات ، بتعريف الطرفين ، وتقديم الجار والمجرور " له " ثم قوله : تنقل في خلقي السؤدد ، وإضافة الخلقين إليه ، ثم قوله : (فكالسيف) وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ ، لأن المعنى لا محالة فهو كالسيف ، ثم تكريره الكاف في قوله : " وكالبحر" ثم بأن قرن إلى كل واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه ، وأخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر ، وذلك قوله : " صارخا " هناك ، وقوله "مستثيبا" هنا ، ثم بأن ، وصف العزم والرأي ، والسماح والبأس بصفات يشتد التلاؤم فيها والتوافق ، بين كل صفه وموصوفها ، تأمل : (عزما وشيكا . رأيا صليبا .. سماحا مرجى .. بأسا مهيبا ..) .

فمرجع المزية – كما ترى – إلى ما توخي في النظم ، وروعي في تأليف العبارات ، وليس إلى الكلمات المجردة ، والمعاني المفردة »

فإذا لم يتوخ المتكلم معاني النحو التي تلائم المقام ، ولم يراع النطق بالألفاظ على حذو ترتيب المعاني في النفس ، وُصِف الكلام عندئذ بالخلل والفساد وسوء النظم ، وذلك على نحو ما نرى في قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وقول أبي تمام :

ثانية في كبد السماء ولم يكن كاثنين ثان إذ هما الغار

ففساد مثل هذه الأبيات ، مردة إلى أن الشاعر لم يقتف في نظمه آثار المعاني ، فيرتب ألفاظه ، وفق ترتيب المعاني في نفسه ، بل قدم وأخر أو حذف وأضمر بلا مسوغ ، فأدى ذلك إلى اللبس ، وانبهام المعنى ، وهذا ما عرف باسم المعاظلة أو التعقيد اللفظي .

هل يعول على فنون البلاغة في إثبات المزية وتحقيق الإعجاز ؟

ما من ريب في أن فنون البلاغة من تشبيه ومجاز وكناية وتورية وطباق وجناس وغير ها، مما يضفى على الكلام حسنا ، ويزيده جمالا وروعة ، ولكن هذه الفنون لا يكون لها ما يكون من المزية والبراعة ، إلا إذا نظر إليها من خلال النظم الذي صيغت فيه ، وقد مر بنا رأى الباقلاني في أن الفنون البلاغية لا تعد معجزة ، إلا إذا روعي نظمها الذي سلكت فيه، ونُظِر إليها من خلاله .. ويقرر عبد القاهر تلك الحقيقة في مواضع كثيرة من **دلائل الإعجاز**

أقرأ قوله مبرزا حسن الاستعارة في قول عبد الله بن المعتز :

سالت عليه شعابُ الحي حين دعا أنصارَه بوجوهٍ كالدنانيرِ

« فأنك ترى هذه الاستعارة ، على لطفها وغرابتها ، إنما تم لها الحسن ، وانتهى إلى حيث انتهى ، بما توخى في وضع الكلام من التقديم والتأخير ، وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها ، وإن شككت فاعمد إلى الجارين والظرف ، فأزل كلا منها عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه ، فقيل : سالت شعاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا أنصاره، ثم انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعدم أريحيتك التي كانت ، وكيف تذهب النشوة التي كنت تجدها؟ »

وفي قول المتنبي يتحدث عن قلعة بناها سيف الدولة :

غصت الدهر والملوك عليها فبناها في وجنة الدهر خالا

« قد ترى في أول الأمر أن حسنه أجمع في أن جعل للدهر وجنة وجعل البنية خالا في الوجنة، وليس الأمر على ذلك ، فإن موضع الأعجوبة في أن أخرج الكلام مخرجه الذي ترى ، وأن أتى بالخال منصوبا على الحال من قوله :"فبناها، أفلا ترى أنك لو قلت : وهي خال قي وجنة الدهر ، لوجدت الصورة غير ما ترى ...

وبهذا يتضح لك أن فنون البلاغة لا يكون لها ما يكون من المزايا ، ولا تحقق إعجازا ، إلا من خلال سياقها ونظمها الذي سلكت فيه ، أما إذا انتزعت من سياقها ، ونظر إليها بعيدًا عن النظم والسياق ، فلا يكون لها مزية ، ولا تحقق إعجازًا ، أو بمعنى آخر لا يقال : هذا التشبيه معجزٌ ، أو تلك الاستعارة لها وجوه من المزايا ، أو ذاك التجنيس رائع وله براعته إلا إذا لوحظ موضع كل منها في السياق الذي سيقت فيه ، والنظم الذي سلكت فيه ونظمت . ... »

شواهد قرآنية :

ومما استشهد به أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾يقول في تحليلها : « ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ ، لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم. وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه الميزة الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى شيء، وهو لما هو من سببه، فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتي بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنما كانا من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: (طاب زيدُ نفساً)، و (قرَّ عمرو عيناً)، و(تصبب عرقاً)، و(كرُم أصلاً)، (حسُن وجهاً)، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه .

وذلك أنا نعلم أن (اشتعل) للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ، كما (طاب) للنفس، و(قرَّ) للعين، و(تصبب) للعرق، وإن أُسند إلى ما أسند إليه. يُبين أن الشرف كان لأن سُلك فيه هذا المسلك، وتوخي به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول: (اشتعل شيب الرأس)، أو (الشيب في الرأس)، ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟

فإن قلت: فما السبب في أن كان (اشتعل) إذا استعير للشيب على هذا الوجه، كان له الفضل ؟ فإن السبب أنه يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى، الشمول، وأنه قد

شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: (اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس)، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة. ووزان هذا أنك تقول: (اشتعل البيت ناراً)، فيكون المعنى: أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه ، وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: (اشتعلت النار في البيت)، فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه، وإصابتها جانباً منه. فأما الشمول، وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته، فلا يُعقل من اللفظ البتة.

ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : ﴿ **وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً** ﴾ (التفجير) للعيون في المعنى ، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أُسند هناك الاشتعال إلى الرأس. وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا مثل الذي حصل هناك . وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد صارت عيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان منها. ولو أُجري اللفظ على ظاهره فقيل: (وفجرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض)، لم يفد ذلك ولم يدل عليه، ولكان المفهوم منه أن الماء قد فار من عيونٍ متفرقة في الأرض، وتبجس من أماكن منها .

واعلم أن في الآية الأولى شيئاً آخر من جنس النظم، وهو تعريف (الرأس) بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية. ولو قيل: (واشتعل رأسي) فصرح بالإضافة، لذهب الحُسن، فأعرفه .

وخلاصة القول: أن عبد القاهر الجرجاني قد استفاد من العلماء قبله كالجاحظ و الباقلاني والقاضي عبد الجبار ممن كتبوا في الإعجاز ، وأبي هلال العسكري ، وابن رشيق القيرواني ونحوهما من الأدباء والنقاد، واستطاع بذوقه المرهف ، وملكته الأصيلة ، وتضلعه بعلم النحو أن يبين مفهوم النظم، ويوضح معالمه مستشهداً في تبيان ذلك بكل ما وعاه من الشواهد ..وأن يثبت أن المزية لا ترجع إلى الألفاظ المجردة وحدها، ولا إلى المعاني وحدها وإنما ترجع إلى النظم، الذي هو توخي معاني النحو، فهو – أي النظم – يقوم على ترتيب الكلام حسب مضامينه، ودلالاته في النفس.. فالمتكلم يرتب أفكاره ، وينسقها، ثم يأتي دور الألفاظ في النطق ، فترتب حسبما ترتبت الأفكار في الذهن ، فإذا وجب أن يكون المعنى أولاً في النفس ومقدماً على غيره، وجب أن يكون اللفظ الدال عليه أولاً ، وبقدر ما يكون ترتيب الألفاظ وفق ترتيب المعاني في النفس تكون البراعة ويكون الحسن . والأديب الجيد ، والمتكلم البليغ هو الذي يستطيع أن يرتب ألفاظه ، ويصوغ عباراته وفق ترتيب المعاني والأفكار التي تكونت في ذهنه ...!

❖ المحاضرة الرابعة :

مما سبق يتضح لنا بجلاء :

أهمية نظرية النظم في ميدان الدراسات البلاغية والقرآنية و اللغوية والأدبية النقدية:

١- **أما في الدراسات البلاغية القرآنية** : فقد استطاع الجرجاني أن يقرر أن إعجاز القرآن إنما كان في (**بلاغة نظمه**) ، وأنه الوجه الوحيد الذي تحدى الله به العرب ، والذي يمكن أن نفسر الإعجاز به ؛ ذلك أنه بفضل تبحره في علم النحو، وإفادته مما كتب السابقون في أسرار الإعجاز، وبخاصة علماء المعتزلة والأشاعرة الذين وجدت في كتاباتهم بذور النظرية ، وبالأخص القاضي عبد الجبار الاسترابادي - كما مرَّ - في وقت رأى فيه حيرة العلماء في تفسير أسباب الإعجاز ، وتخبطهم فيه ... ؛ بمعنى أن الله تعلى لما تحدى العرب بأن يأتوا بمثل القرآن لم يتحداهم بما فيه من أخبار الغيب ، ولا بما فيه من علوم ومعارف ، أو علوم كونية ، أو سياسته في الإصلاح والتشريع ، ولا بما فيه من آيات عتاب .. أو غيرها من وجوه الإعجاز التي أوصلها بعضهم إلى العشرين وجهاً .. وإنما تحداهم بأن يأتوا بمثله في بلاغة نظمه ؛ لأنه الوجه المتحقق في أقصر سورة ، أما ما عداها من وجوه فغير متحققة في كل سورة ، وكل آية !

وأن القرآن معجز بالنظم لا بالصرفة [1] ؛ لذلك نراه يكرر ويعيد الحديث عن النظم ، ويكثر من الأمثلة والشرح ليقرب الفكرة ، ويقنع بها الناس .؛ ذلك أنه لم يقتنع في إعجاز القرآن إلا بوجه يتحقق في جميع سور القرآن ، فرأى الإخبار عن الأمور الغيبية أمراً يتحقق في بعض سور القرآن ، وكذلك حديثه عن الأمور الماضية منذ خلق آدم إلى اليوم في بعض السور دون بعض ، ورأى أن المعاني التي تضمنها القرآن في أصل التشريع والأحكام ليست موجودة في كل السور ، ونفى أن يكون الإعجاز لوجود التشبيه والمجاز والاستعارة ؛ لأن هذه الألوان في آيات محددة ، ولا توجد في جميع السور، ولا بالفواصل ولا سهولة اللفظ.. إنما الشيء الذي يوجد في جميع سور القرآن هو بلاغة النظم ؛ فإن تلك البلاغة تتحقق في أقصر سور القرآن كما تتحقق في أطول سوره ... وبذلك يكاد يكون باب الدراسات حول وجوه الإعجاز القرآني قد أُغلق بعد عبد القاهر تقريباً ، وكل من كتب بعده عن الإعجاز كان عالة عليه حتى العصر الحديث الذي حاول علماؤه أن يقدموا رؤاهم في تأويل الإعجاز.

وقد أثر (دلائل الإعجاز) وهو الكتاب الذي شرح فيه نظرية النظم في الدراسات القرآنية والبلاغية ،حيثُ اتخذه الزمخشري أساساً في تفسيره (الكشاف)، بل تبنى نظريته ، وطبقها على

القرآن أثناء التفسير .

وقد تكونت عن هذه النظرية أبواب علم المعاني – كما سماه السكاكي – وانبثقت مباحثه ، لأنه جعله أساساً له في تناول هذا العلم الذي يدرس أحوال اللفظ في الجملة : المسند والمسند إليه ، ومتعلقات الفعل ، ... كما يتناول دراسة أحوال الجملة ، وعلاقتها وارتباطها بغيرها من الجمل ، وهذا يشمل دراسة الجمل الإنشائية ، والخبرية ، والفروق الدقيقة بينهما وأساليب القصر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ....

وقد عرض لها عبدالقاهر لهذه المسائل تطبيقاً لنظرية التي حدد مفهومها ، وأوضح معالمها ، فتحدَّث عن التقديم والتأخير ، وعن الحذف ، والفصل والوصل ، وطرق القصر ، وغير ذلك من مسائل المعاني ، وأفاد البلاغيون من حديثه وتطبيقاته ، فكانت أبواب علم المعاني.

❖ ❖ ❖

٢- **وأما الدراسات اللغوية** ؛ فإنه حينما أرجع الفضيلة والمزية في الكلام إلى خصائص الألفاظ ، وما بينها من علاقات وروابط سبق أحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا في العصر الحديث ، لأنه فطن إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ ، بل هي مجموعة من العلاقات والخصائص ، وهذا هو **منهج النقد اللغوي الذي يقوم فكرة أن اللغة مجموعة من العلاقات والروابط** ، وهو منهج النحو عند عبدالقاهر ، وطريقة فهمه لمعانيه ، إنه لم يقف بالنحو عند الحكم بالصحة أو الفساد ، بل تعداه وتجاوزه إلى التذوق ، وتعليل الجودة أو عدمها .

٣- **وأما الدراسات النقدية الأدبية** ؛ فقد كانت **أصل النظريات النقدية التي دعا إليها نقاد الغرب** ، فضلاً عن أنها أهم نظرية نقدية في النقد العربي القديم ؛ ذلك أنها قضت على تلك الثنائية التي رافقت النقد العربي منذ الجاحظ ؛ إذ كان أول من أثارها **وهي ثنائية اللفظ والمعنى**، وتعني: انقسام مقومات العمل الأدبي بين اللفظ والمعنى، فقد انقسم النقاد العرب في معالجتهم لهذه القضية إلى طوائف : فمنهم من أرجع مقومات العمل إلى المعنى مغفلاً جانب اللفظ، ومنهم من أعطى اللفظ كل القيمة، ومنهم من ساوى بينهما .

وكان الفصل بين اللفظ والمعنى نتيجة للتفكير المنطقي، وثمرة للنظرية الشكلية المجردة للغة التي كانت سائدة في ذلك العصر .

وهذه القضية (قضية اللفظ والمعنى) تعد من أقدم المشكلات التي رافقت الكلام عن الشعر؛ لتميزه عن النثر، ولتقدير قيمته، وبيان آثره . وكانوا يقصدون بالمعنى: الغرض أو المقصد، وما يريد

المتكلم أن يثبته أو ينفيه من الكلام، وبهذا الاستخدام يرادف الفكرة العادية المجردة التي يتفنن المبدع في صياغتها، ويستخلصها المتلقي من صياغة المبدع بعد تجريدها من الحواشي والزخارف .

بينما يشير اللفظ إلى: ما نسميه بالتكوين الموسيقي وإيقاع العبارات، والصورة الدقيقة للمعنى، وحتى يتبين لنا دورها في ذلك نعرض بإيجاز لآراء العلماء حول هذه القضية :

أولا: الجاحظ (ت:٢٥٥ هـ)

وهو أول من التفت إلى هذه القضية ، حيث اهتم بجانب اللفظ في مواضع ، وجانب المعنى في مواضع أخرى مؤكداً هذا الاهتمام في كثير من كتاباته في الحيوان ، ثم في البيان والتبيين على الرغم من اتهامه بإغفال قيمة المعنى للحادثة المشهورة كما في الحيوان لما رأى أبا عمروا الشيباني استجاد قول الشاعر :

لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البِلَى فإنما الموتُ سؤالُ الرجالِ

كلاهما موتٌ ولكنَّ ذا أفظع من ذاك لذل السؤال

وأنه قد بلغ من استجادته لهذين البيتين أن كلَّف رجلاً حتى أحضر له دواةً وقرطاساً و كتبهما له ، وهو في المسجد يوم الجمعة.. يقول الجاحظ: « وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ، ولو لا أن دخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أم ابنه لا يقول شعراً أبداً » ويعلل رأيه بقوله :

« وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العربي والعجمي ، والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير » [١]

ففي هذه الرواية نجد أن الشيباني لا يحفل إلا بالمعنى في أي عبارة صُب فيها ؛ لأن إعجابه بالبيتين لما فيهما من حكمة. أما الجاحظ فكان يحفل بالصياغة، لما لها من أهمية في إظهار المعنى الذي يظل مستوراً في النفس ، موجوداً في معنى العدم حتى يحييه اللفظ ويبرزه. ولعله كذلك يريد المعاني الشائعة المطروقة كالتي وردت في هذين البيتين .

والذي يؤكد ميله إلى جانب اللفظ ، ودقة اهتمامه بأمر الصياغة حملته القوية على تنافر الألفاظ وتشبيهها بأولاد العلات وببعر الكبش .. هذا كما قلنا جعل النقاد يرونه من أنصار اللفظ مع اهتمامه بأمر المعنى .

---

٤) الحيوان : ٣|١٣١ - ١٣٢

ثانياً: ابن قتيبة (ت:٢٧٦هـ)

وابن قتيبة في كتابه (**الشعر والشعراء**) كذلك يهتم باللفظ والمعنى ، ويبدو ذلك من تقسيمه الشعر إلى أربعة أقسام :

الأول - ما حسن لفظه ومعناه.

الثاني - ما حسن لفظه دون معناه .

الثالث - ما حسن معناه دون لفظه .

الرابع - ما خلا من حسن اللفظ والمعنى معاً .

ومثَّل للقسم الأول بأبيات لم يلتفت فيها إلا للفظ والمعنى ، أما قوة العاطفة وجمال التصوير فلم يلتفت إليهما مع روعتها في الأبيات . وفي القسم الثاني مثَّل بأبيات: ورأى أنها غير جديرة بالجودة ؛ لخلوها من أي فكرة أخلاقية ، أو فلسفية ، أو أدبية على الرغم من أنها تفيض بالمعاني الوجدانية، وتنطق بمشاعر اللقاء والشوق ، ونصه بعد أن ساق الأبيات :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ ومسَّح بالأركانِ من هو ماسحُ

وشُدَّت على حدبِ المهاري رحالنا ولا يَنظُرُ الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

«هذه الألفاظ كما ترى، أحسنُ شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لاينظر العادي الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطيُّ في الأبطح » [1]

ويكفي أن أحيلك على عبد القاهر في كشف جمالها وبيان روعتها ، فقد تناولها بالتعليق في قوله : « إن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : (ولما قضينا من منى كل حاجة) فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسنتها من طريقٍ أمكنه أن يقصر سعة اللفظ، وهو طريقة العموم : ثم نبه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الركاب ، وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة (الأطراف) على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطوفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجبه إلفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكيف يليق بحال من وفق

---

٥) الشعر والشعراء : ٧ ـ ٩ .

لقضاء العبادة الشريفة ، ورجا حسن الإياب .. ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق بها معضل التشبيه ؛ فصرح أولاً بما أومأ إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حالة التوجه إلى المنازل ، وأخبر بعد بسرعة السير، ووطأة الظهر، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح » [1] .

وبذلك يكون ابن قتيبة على الرغم من تسويته بين اللفظ والمعنى إلا أنه لم ينفذ إلى أعماق الشعر ليفهم طبيعة الخلق الفني ، وأن اللفظ والمعنى يولدان معاً ، وإنما نظر إليهما مستقلين ؛ لتأثره بالتفكير المنطقي الذي ساده عصره ومثله :

ثالثاً: قدامة بن جعفر (ت:٣٣٧هـ)

الذي عالج القضية بأسلوب منطقي لا يحسن إلا التقسيم والتبويب، وينظر إلى الشعر نظرة فيها المخالفة كلها لطبيعة الشعر الحية ؛ لأن العلم بالشعر عنده ينقسم أقساماً « قسمٌ ينسب إلى علم عروضه، ووزنه، وقسمٌ ينسب إليه علم قوافيه، ومقاطعه، وقسمُ ينسب إلى علم غربيه ولغته، وقسمٌ ينسب إلى علم معانيه والمقصد، وقسم ينسب إلى علم جيده و رديئه .. » [2]

فعناصر الشعر عنده أجزاء مبعثرة ومفككة. وهذه الدراسة تمزيقٌ لأوصال الشعر، وهل نجد أقسى من هذه النظرة لطبيعة الشعر ؟!

ثم إنه يلتقي مع الجاحظ في أن المعاني « معروضة الشاعر، وله أن يتكلم فيهما فيما أحب وآثر من غير أن يخطر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة.. » [3] فلا قيمة عنده للمعاني في الأدب، وإنما القيمة للشكل والصياغة .

رابعاً: أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥ هـ)

ونراه في كتابه (الصناعتين) ينتصر مرةً للفظ، ويجعله مدار البراعة، والحسن في الشعر، ويفضله على المعنى متأثراً بظاهر عبارة الجاحظ ، ونصه:
« الكلام –أيدك الله – يحسن بسلاسته، وسهولته، ونصاعته، وتخير لفظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه ... » [1]

« وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وإنما هو جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك

---

١) الجرجاني ، أسرار البلاغة : ٢٢ ـ ٢٣
٢) ينظر : نقد الشعر : ٣٠
3) نقد الشعر : ٣١
١) الصناعتين : ٦١ .

والتركيب، والخلو من أُود النظم والتأليف. وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعومته التي تقدمت » [٢]

« ومن الدليل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام ، وإحكام صنعته ، ورونق ألفاظه ، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم منشئه . وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني» [٣]

ونراه يعود فيهتم بجانب المعنى حيث يقول: « ويحتاج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى كصاحبه إلى تحسين اللفظ ؛ لأن المدار بعد على إصابة المعنى،ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان،والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة » [٤]

وها هو ذا يستحسن من رأى أن الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح فيقول: « وقال العتابي: الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخراً، أو أخرت منها مقدماً أفسدت الصورة، وغيرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضوع يد، أو يد موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية. وقد أحسن في هذا التمثيل وأعلم أن الذي ينبغي في صيغة الكلام وضع كل شيء منه في موضعه ؛ ليخرج بذلك من سوء النظم » [٥]

فهو إذن متأرجح بين الاهتمام باللفظ حتى اعتبر من اللفظيين، وبين الاهتمام بالمعنى، ونخرج من ذلك إلى أنه اهتم بهما جميعاً .... ولا يفوتنا أن نقف مع:

ابن رشيق القيرواني (ت:٤١٣ هـ)

الذي ذكر مذهب القوم في هذه القضية وأشار إلى ضرورة التلاحم بين اللفظ والمعنى، فقد اعتبر اللفظ والمعنى شيئاً واحداً متلازماً ملازمة الروح للجسد ، فلا يمكن الفصل بينهما بحال، قال: « اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه .. فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه » [٦]. ولكن يؤخذ عليه أنه رأى إمكانية سلامة المعنى مع اختلال اللفظ، ويمثل لذلك بالعور والشلل والعرج وما أشبه ذلك ؛ إذ يرى فيها عيباً ظاهراً مع سلامة

---

٢) المصدر نفسه : ٦٣ ـ ٦٤ .
٣) المصدر نفسه .
٤) المصدر نفسه .
٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ١|١٢٤ .
١٤) السابق نفسه .

الروح ، وبالتالي يكون للروح جمال، وللجسد جمال، وهذا دليل على أنه لم يتعمق في فكرة العلاقة الملتحمة بين اللفظ والمعنى، والنظرة إلى أنهما عنصران ملتحمان يولدان في وقت واحد لم تكن قد استوت بعد في نفس ابن رشيق.

وبذلك كانت نظرة السابقين لعبد القاهر الجرجاني تقوم على:

١. الفصل بين اللفظ والمعنى لابن رشيق.

٢. ميلهم في الغالب إلى جانب اللفظ، وإن اهتموا بجانب المعنى.

٣. لم يكن فهمهم لهذه العلاقة بينهما واضحاً ، وذلك لعدم فهمهم لطبيعة العمل الأدبي أساساً.

٤. كانت آراؤهم النقدية صدى لسيطرة التفكير المنطقي على عقلياتهم ، الأمر الذي انعكس على نظرتهم للشعر.

وبذلك ندرك فضل عبد القاهر وفكرته في النظم في **القضاء على تلك الثنائية بين اللفظ والمعنى؛ لأنه أكد أن لا مزية للفظ وحده ولا للمعنى وحده وإنما لشيء آخر ناتج من ارتباطهما معاً**، وهو النظم والإعجاز القرآني أمرُ يرجع إلى شيء آخر وراء الألفاظ المفردة ومعانيها اللغوية، ذلك الشيء هو (النظم) .... هذه النظرية تطورت أصولها في العصر الحديث إلى ما يعرف بالصورة الشعرية أو الصورة الفنية ، وبذلك يسبق أحدث ما وصل إليه النقد الحديث في أوربا من نظريات تتصل بها.

❖ ❖ ❖

❖ **المحاضرة السادسة :**

❖ **خصائص الأسلوب القرآني :**

إن الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن ، والمزايا التي توافرت فيه حتى جعلت له طابعًا معجزًا في لغته وبلاغته ، أفاض العلماء فيها بين مقل ومكثر ، ولكنهم بعد أن أطال بهم المطاف ، وبعد أن دميت أقدامهم ، وحفيت أقلامهم ، لم يزيدوا على أن قدموا إلينا قطرةٌ من بحر ، معترفين بأنهم عجزوا عن الوفاء ، وأن ما خفي عليهم أكثر مما ظهر لهم فذكروه ، وأنهم لم يزيدوا على أن قربوا لنا البعيد بضربٍ من التمثيل رجاء الإيضاح والتبيين ، أما الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائصه على وجه الاستيعاب فأمرٌ استأثر به منزله الذي عنده علم الكتاب ... وهي سمة الإعجاز الخالد .

ونحن بدورنا نذكر شيئاً من خصائص أسلوب القرآن ، على وجه التمثيل والتقريب – أيضًا - ، وما لا يدرك كله لا يترك أقله !

الخاصة الأولى:

مسحة القرآن اللفظية: فإنها مسحة خلابة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي .

١- **ونريد بنظام القرآن الصوتي** : اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ،ومداته وغناته ،واتصالاته وسكتاته ، اتساقا عجيبا ، وائتلافاً رائعا ، يسترعي الأسماع ويستهوي النفوس ، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور. وبيان ذلك أن من ألقى سمعه إلى مجموعة القرآن الصوتية ، وهي مرسلة على وجه السذاجة في الهواء ؛ مجردة من هيكل الحروف والكلمات ، كأن يكون السامع بعيداً عن القارئ المجود، بحيث لا تبلغ إلى سمعه الحروف والكلمات متميزا بعضها عن بعض ، بل يبلغه مجرد الأصوات الساذجة المؤلفة من المدات والغنات ، والحركات والسكنات، والاتصالات والسكتات . نقول: إن من ألقى سمعه إلى هذه المجموعة الصوتية يشعر من نفسه ولو كان أعجميا لا يعرف العربية ، بأنه أمام لحن غريب وتوقيع عجيب ،يفوق في حسنه وجماله كل ما عرف من توقيع الموسيقى وترنيم الشعر، لأن الموسيقى تتشابه أجراسها وتتقارب أنغامها فلا يفتأ السمع أن يملها ، والطبع أن يمجها، ولأن الشعر تتحد فيه الأوزان وتتشابه القوافي في القصيدة الواحدة غالبا وإن طالت ، على نمط يورث سامعه السأم والملل ، بينما سامع لحن القرآن لا يسأم ولا يمل ، لأنه ينتقل فيه دائما بين ألحان متنوعة ، وأنغام متجددة تهزُّ أوتار القلوب .

وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي، وهو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن ، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام ، حتى خيل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر ؟ أنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة ، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة، لم

يعرفوا شيئا قريبا منها إلا في الشعر ، ولكن سرعان ماعادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا ، حتى قال قائلهم – وهو الوليد بن المغيرة - :« وما هو بالشعر » معللا ذلك بأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في القصيدة ، بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ حين زعم في ظلام العناد والحيرة أنه سحر ، لأنه أخذ من النثر جلاله وروعته، ومن النظم جماله ومتعته ووقف منهما في نقطة وسط خارقة لحدود العادة البشرية ، وما هو بالشعر ولا بالسحر ! لماذا ؟

لأن الشعر معروف لهم بتقفيته ووزنه وقانونه ورسمه ، والقرآن ليس منه ؛ ولأن السحر محاولات خبيثة لا تصدر إلا من نفس خبيثة ، ولقد علمت قريش أكثر من غيرهم طهارة النفس المحمدية وسموها ونبلها ؛ إذ كانوا أعلم الناس به ، وأعرفهم بسيرته .. هذا إلى أن القرآن كله ، ما هو إلا دعوة طيبة لأهداف طيبة ، لا محل فيها إلى خبث ورجس بل هي تحارب السحر وخبثه ورجسه ، وتسمه بأنه كفر .

إن السحر معروف المقدمات والوسائل ، فليس بمعجز، ولا يمكنه ولن يمكنه أن يأتي في يوم من الأيام بمثل هذا الذي جاء به القرآن ، وأمَّا ما ادعاه **الوليد بن المغيرة** فدليل وبيانٌ لوقع هذا الأثر على الناس.

إن الوليد حين أرسل نفسه على سجيتها العربية ، وبديهتها الفطرية أنصف في حكمه، حين تجرد ساعة من عناده وكفره ، وقال : والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا ، إلى أن قال : وإنه ليحطم ما تحته . لكن حين غلبت عليه شقوته ، وعادوه عناده وتعصبه ، قاوم فطرته وأكره نفسه على مخالفة شعوره ووجدانه ، وقال ما قال بعد أن حار وذهب كل مذهب في ضلاله وحيرته، وقد صور القرآن تلك الحيرة والمقاومة بقوله :﴿ **إنه فكَّر وقدر** .....﴾

٢- **ونريد بجمال القرآن اللغوي** ، تللك الظاهرة العجيبة التي امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته ، ترتيبا دونه كل ترتيب ونظام عرفه الناس في كلامهم . وبيان ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة ، تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات وهذا ينقر وذاك يصفر . وهذا يخفي وذاك يظهر ، وهذا يهمس وذاك يجهر ، وإلى غير ذلك مما هو مقرر في باب مخارج الحروف وصفاتها في علم التجويد . ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة ، الجامعة بين اللين والشدة ، والخشونة والرقة ، والجهر والخفية ، على وجه دقيق محكم ، وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة فموضعه بميزان حتى تألف من المجموع قالب لفظي مدهش ، وقشرة سطحية أخَّاذة امتزجت فيها جزالة البداوة في غير خشونة،برقة الحضارة من غير ميوعة ، وتلاقت عندها أذواق القبائل العربية على اختلافها بكل يسر وسهولة . ولقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز ، بحيث لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لا عتل مذاقه في أفواه قارئيه ، واختل نظامه في أذان سامعيه.

ومن عجيب أمر هذا الجمال اللغوي ، وذاك النظام الصوتي ، أنهما كما كانا دليل إعجاز من ناحية ، كانا سورا منيعا لحفظ القرآن من ناحية أخرى . فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله مصداقا لقوله سبحانه: ﴿ **إنا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحَافظُون** ﴾

الخاصة الثانية:

إرضاؤه العامة والخاصة : ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم ، أحسوا جلاله، وذاقوا حلاوته، وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضى عقولهم وعواطفهم . وكذلك الخاصة إذا قرءوه أو قرئ عليهم ؛ أحسوا جلاله وذاقوا حلاوته ، وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ، ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كمثله كلام لا في إشراق ديباجته ولا في امتلائه وثروته، ولا كذلك كلام البشر ، فإنه إن أرضى الخاصة والأذكياء، لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة ، لم يرض العامة لأنهم لا يفهمونه وإنه أرضى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية المكشوفة، لم يرض الخاصة لنزوله إلى مستوى ليس فيه متاع لأذواقهم ومشاربهم وعقولهم.

تطبيق:

قوله تعالى﴿ **وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾

وقوله تعالى﴿**خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾

الخاصة الثالثة:

إرضاؤه العقل والعاطفة: ومعنى هذا أن أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا، ويجمع الحق والجمال معا . انظر إليه - مثلا – وهو في معمعان الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريهما ، كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا ، ويمتع العاطفة إمتاعا، بما جاء في طي هذه الأدلة المسكتة المقنعة ، إذ قال الله سبحانه في سورة فصلت: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى . إنه على كل شيء قدير ﴾ (آية: ٣٩). وإذ قال في سورة ق:﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ❖ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ❖ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصد ❖ والنخل باسقات لها طلع نضيد ❖ رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج**﴾(ق:٦- ١١). تأمل في هذا الأسلوب البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آن واحد ، حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل ، إذ قال في الآية الأولى ﴿ **إن الذي أحياها لمحيي الموتى** ﴾ وفي الآيات الأخيرة ﴿ **كذلك الخروج** ﴾ يا للجمال الساحر ! ويا

للإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأنصح الأدلة وأمتع المعروضات ، في هذه الكلمات المعدودات !.

ثم انظر إلى القرآن وهو يسوق قصة يوسف – مثلا - كيف يأتي في خلالها بالعظات البالغة، ويطلع من خلالها بالبراهين الساطعة ،على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة، إذ قال في فصل من فصول تلك الرواية الرائعة :﴿ **وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب، وقالت : هيت لك .قال معاذ الله ، أنه ربي أحسن مثواي ، إنه لا يفلح الظالمون** ﴾(يوسف: ٢٣) فتأمل في هذه الآية كيف قوبلت دواعي الغواية الثلاث ، بدواعي العفاف الثلاث، مقابلة صورت من القصص الممتع جدالا عنيفا بيت جند الرحمن وجند الشيطان، ووضعتهما أمام العقل المنصف في كفتي ميزان !

وهكذا تجد القرآن كله مزيجا حلوا سائغا ، يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية ، ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية، ويوجه العقول والعواطف معا جنبا إلى جنب لهداية الإنسان وخير الإنسانية!

وهل تسعد بمثل هذا في كلام البشر ؟ لا ، ثم لا . بل كلامهم إن وفى بحق العقل بخس العاطفة حقها ، وإن وفى بحق العاطفة بخس العقل حقه ، وبمقدار ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر، حتى لقد بات العرف العام يقسم الأساليب البشرية إلى نوعين لا ثالث لهما : أسلوب علمي ، وأسلوب أدبي ... وهكذا تجد كلام العلماء والمحققين فيه من الجفاء والعرى ، مالا يهز القلوب ويحرك النفوس ، وتجد في كلام الأدباء والشعراء من الهزال والعقم العلمي مالا يغذي الأفكار ويقنع العقول ؛ ذلك لأن القوى العاقلة والقوى الشاعرة في بني الإنسان غير متكافئة . وعلى فرض تكافئهما في شخص فإنهما لا تعملان دفعة واحدة ، فكلام الشخص إما وليد فكرة ، وإما وليد عاطفة ، وإما ثوب مرقع يتألف من جمل نظرية تكون ثمرة للتفكير ومن جمل عاطفية تكون ثمرة للشعور . أما أن تأتي كل جملة من جملة جامعة للغايتين معا . فدون ذلك صعود السماء . أما القرآن فإنه انفراد بهذه الميزة بين أنواع الكلام ، لأنه تنزيل من القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن، والذي جمع بين الروح والجسد في قران!

الخاصة الرابعة:

جودة سبك القرآن وإحكام سرده: ومعنى هذا أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته وجمله وآياته وسوره، مبلغا لا يدانيه في أي كلام أخر ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده، وافتنانه وتلوينه في الموضوع الواحد . وآية ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم ؛ وجدت منه جسما كاملا تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه ولمحت فيه روحا عاما تجمع بين أعضائه . فإذا هو وحدة متماسكة متآلفة ، على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة . فمن كلمات الجملة الواحدة من التآخي والتناسق ، ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب، وبين جمل السورة الواحدة من التشابك

والترابط ، ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات . وبين صور القرآن من التناسب ما جعله كتابا سوي الخلق حسن السمت :" قرآنا عربيا غير ذي عوج " (الزمر:٢٨) فكأنما هو سبيكة واحدة تأخذ بالأبصار وتلعب بالعقول والأفكار ، على أنها مؤلفة من حلقات ،ولكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها ذات أجزاء، ولكل جزء وضع خاص من الحلقة ، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة، لكن على وجه من جودة السبك وإحكام السرد، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة ، وحدة بديعة متآلفة ، تريك كمال الانسجام بين كل جزء وجزء ، ثم بين كل حلقة وحلقة ثم بين أوائل السبيكة وأواخرها وأواسطها.

يَعرفُ هذا الإحكام والترابط في القرآن ، كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه ، من غير تفكك ولا تخاذل ، ولا انحلال ولا تنافر بينما الموضوعات مختلفة متنوعة ، فمن تشريع إلى جدل إلى وصف إلى غير ذلك ، وكتب التفسير طافحة ببيان المناسبات،فنحيلك عليها ، ونكتفي بمثل واحد نضربه مع الاختصار والاقتصار.

هذه سورة الفاتحة: تأمل كيف تترابط وتتناسق في حسن تخلص من معنى إلى معنى ، ومن مقصد إلى مقصد : لقد افتتحت متوجه " باسم الله " كما يتوج القاضي كل حكم من أحكامه باسم جلاله الملك ، لإعلان الجهة التي يستمد منها نفوذه في صدور أحكامه، ثم انتقل الكلام فيها سريعا إلى الاستدلال على أن الاستعانة إنما هي به تعالى وحده ، وذلك بإضافة الاسم إلى لفظ الجلالة الذي هو اسم الذات الجامع لصفات الكمال ، وبوصف لفظ الجلالة بأنه (الرحمن الرحيم) .ثم انتقل الكلام إلى إعلان أنه تعالى مستحق للمحامد كلها ، ثم انتقل الكلام إلى تدعيم هذا الاستحقاق بأدلة ثلاثة جرت على اسم الجلالة مجرى الأوصاف في مقام حمده : ﴿**الحمد للّهِ ربِ العالمين. الرحمنِ الرحيمِ. مالك يوم الدين**﴾ ، ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان ، وهو إعلان وحدانيته ، في ألوهيته وربوبيته﴿ **إياك نعبدُ وإياك نستعينُ** ﴾ مادام أنه هو المعين وحده ، ومستحق المحامد كلها وحده . ثم انتقل الكلام في براعة إلى بيان المطمح الأعلى للإنسان ، وأن هذا المطمح الأعلى هو الهداية إلى الصراط المستقيم ، وأنه لا سبيل إلى الوصول إلى هذا المطمح عن طريق أحد إلا عن طريق الله وحده،بقرينه ما سبق من أدلة التوحيد والتمجيد قبله:﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ثم انتقل الكلام من حيث شعرت أو لم تشعر إلى تقسيم الخلق بالنسبة إلى هذه الهداية إلى ثلاثة أقسام ، تنبيها وإغراء على المقصود ، وتحذيرا وتنفيرا من الوقوع في نقيض هذا المقصود ﴿ **صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**﴾ وإذا الناس أمام عينيك بين منعم عليه بمعرفة الحق واتباعه ، ومغضوب عليه بمخالفة الحق مع العلم به ، وضال رضي أن يعيش عيشة الأنعام ؛ في متاهة الجهالة والحيرة والضلال ، ثم تنظر في سورة البقرة ، فإذا

هي وما بعدها ترتبط بالفاتحة ارتباط المفصل بالمجمل . فالهداية إلى الصراط المستقيم صراط من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، تشرحها سورة البقرة وما وليها من سور القرآن حيث جاءتنا بتفاصيل هذه الهداية ، في بيان كامل وعرض شامل .

و بعد ... فقد يظن بعض الجهلة أن هذه الوحدة الفنية البيانية في القرآن أمر تافه هين ، لا يسمو إلى حد التنويه به ، فضلا عن أن ينظم في عداد ما هو مناط للإعجاز . ولأجل الرد على هؤلاء نطلب منهم أن ينظروا نظرة فاحصة في كلام البلغاء وحملة الأقلام ، فليستمعوا إلى حكم نقدة البيان وصيارفته عليهم ، بأنهم كثيرا ما يخطئون في تنظيم أغراضهم ؛ إذ قالوا : بل يأتون بها شتيتا متفككا غير متماسك ولا متجاذب ، مما يعاب الشعراء من أجله بسوء التخلص حين ينتقلون من غرض إلى غرض في القصيدة الواحدة ، ومما يضطر الكتاب والعلماء والمؤلفين إلى تلافي هذا النقص ، بما يستخدمون في تنقلاتهم بين أغراضهم ، من أسماء الإشارة وأدوات التنبيه والحديث عن النفس وكثرة التقسيم والترقيم والتبويب والعنونة ، ولفظ أما بعد ، نحو : هذا ، وإن ، ألا ، وإن قلنا كذا ونقول كذا ، ينقسم الكتاب إلى مباحث . المبحث الأول في كذا الخ ، ينقسم هذا المبحث إلى نقاط أولها كذا الخ. ملاحظة. تنبيه فذلكة .أما بعد الخ .

هذا في كلام البشر ... أما كلام مالك القوى والقدر ، فإنه على تنوع أغراضه، وطول نفسه في سوره وآياته ، ينتقل من مقصد إلى مقصد ، وينقلك أنت معه بين هذه المقاصد بطريقة سحرية قد تشعر بها وقد لا تشعر . وحسبك أن تنظر في المثال الآنف الذي قدمناه لك في سورة الفاتحة ، وحبذا أن تنظر في أطول سور القرآن وهي سورة البقرة ، فإنك ستطرب وتعجب ، وسيذهب بك الطرب والعجب إلى حد الذوق البالغ لهذا اللون من الإعجاز القاهر ... **وأدلك على كتاب النبأ العظيم فقد أجاد في بيان هذا اللون وأبدع . وأشبع العقول وأمتع بما عرض من التناسب والترابط بين آحاد هذه السورة!.**

الخاصة الخامسة :

براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام : ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة خارقة ، تنقطع في حلبتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء . ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء ،ولكنها أمثلة تهديك ، ونماذج تكفيك :

واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو ؛ كان فنا من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى ، وكان في الوقت نفسه منة يمنها الله على الناس ؛ ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعا ؛ وتدبرا وعملا ، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفه نفسه.

اقرأ إن شئت قولة سبحانه في سورة الإسراء : ﴿ **ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ؛ فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ وقولة سبحانه في سورة الكهف : ﴿**ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من**

كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾ وقولة سبحانه في سورة الرعد : **﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾**

الخاصة السادسة :

جمع القرآن بين الإجمال والبيان : مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس! بل كلامهم إما مجمل وإما مبين ، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان ،ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت له العادة ، فتسمع الجملة منه وإذا هي بينة مجملة في آن واحد ، أما أنها بينة أو مبينة - بتشديد الياء وفتحها - فلأنها واضحة المغزى وضوحا يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار ، بقدر ما تصيب أنت من النظر وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل:

يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا

ولهذا السر وسع كتاب الله جميع أصحاب المذاهب من أبناء البشر ووجدوا شفاء أنفسهم وعقولهم فيه، وأخذت الأجيال المتعاقبة من مدده الفياض ما جعلهم يجتمعون عليه ويدينون به . ولا كذلك البشر في كلامهم ، فإنهم إذا قصدوا إلى توضيح أغراضهم ، ضاقت ألفاظهم ولم تتسع لاستنباط وتأويل . وإذا قصدوا إلى إجمالها ، لم يتضح ما أرادوه ، وربما التحق عندئذ بالألغاز !

والأمر في هذه الخاصة ظاهرة غني بظهوره عن تمثيل . وحسبك أن ترجع إلى كتب التفسير ، ففيها من ذلك الشيء الكثير **﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾**

الخاصة السابعة :

قصد القرآن في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى : ومعنى هذا أنك في كل من جمل القرآن ، تجد بيانا قاصدا مقدرا على حاجة النفوس البشرية من الهداية الإلهية ، دون أن يزيد اللفظ على المعنى ، أو يقصر عن الوفاء بحاجات الخلق من هداية الخالق . ومع هذا القصد اللفظي البريء من الإسراف والتقتير ،تجده قد جلى لك المعنى في صورة كاملة ، لا تنقص شيئا يعتبر عنصرا أصليا فيها أو حلية مكملة لها ، كما أنها لا تزيد شيئا يعتبر دخيلا فيها وغريبا عنها بل هو كما قال الله :

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

ولا يمكن أن تظفر في غير القرآن ، بمثل هذا الذي تظفر به في القرآن ، بل كل منطيق بليغ مهما تفوق في البلاغة والبيان ، تجده بين هاتين الغايتين ، كالزوج بين ضرتين : بمقدار ما يرضي إحداهما يُغضب الأخرى . فإن ألقى البليغ باله إلى القصد في اللفظ وتخليصه مما عسى أن يكون من الفضول فيه ، حمله ذلك في الغالب على أن يغض من شأن المعنى ، فتجيء صورته ناقصة خفية ،

ربما يصل اللفظ معها إلى حد الإلغاز والتعمية . وإذا ألقى البليغ باله إلى الوفاء بالمعنى وتجلية صورته كاملة حمله ذلك على أن يخرج عن حد القصد في اللفظ ، راكبا متن الإسهاب والإكثار ، حرصا على ألا يفوته شيء من المعنى الذي يقصده ، ولكن يندر حينئذ أن يسلم هذا اللفظ من داء التخمة في إسرافه وفضوله ، تلك التخمة التي تذهب ببهائه ورونقه ... يقول د. عبدالله دراز في كتابه القيم **(النبأ العظيم)**:

«سنزيدك وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ومتانة نظمه وعجيب تصرفه **حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثري في اللفظ القاصد النقي** ... ولا تحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التي وقع اختيار الناس عليها ، وتواصفوا الإعجاب بها كقوله تعالى ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك .... ﴾وقوله ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ وأشباههما. بل نريد أن نجيئك بمثال من عرض القرآن في معنى لا يأبه له الناس ، ولا يقع اختيارهم على مثله عادة ليكون دليلا على ما وراءه!

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود:﴿**وإذا قيل لهم "آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم.قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين** ؟﴾

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي:

- مقالة ينصح بها الناصح لليهود إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن
- إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين
- الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه

وأقسمُ لو أن محاميا بليغا وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية ثم هُدي إلى استنباط هذه المعاني التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ولعله بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات ، وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود: آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ألستم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى ؛ لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله فآمنوا به كما آمنتم بها.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز (آمنوا بما أنزل الله) !! وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته(ما أنزل الله) فجعل دعائهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته.

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل: آمنوا بما أنزل الله "على محمد" أتدري لم ذلك؟.. لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائدا ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسدا

.أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام .وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ، ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح ذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء. كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ليس أنها منزلة من عند الله فحسب بل

أننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا فلكم قرآنكم ولنا توراتنا !

هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله (نؤمن بما أنزل علينا) وهذا هو المقصد الأول . وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

وهذا يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثاني . ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه .انظر كيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبا لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ؛ بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم : فقال . "(ويكفرون بما وراءه) أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ (ما وراءه) ودلالتهاعلى العموم . ذلك أنهم كما كفروا بالقرآن المنزل على محمد كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة ، أي جاء بعدها . ولم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلا . وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع . وهذا هو غاية الإنصاف وتحرى الصدق في الاتهام !

جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه :

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ،بل يتركها مؤقتا كأنها مسلمة ليبني عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقوا: كيف يكون إيمانهم باعثا على الكفر بما هو حق مثله ؟ - لا ، بل (هو الحق) كله –

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه كالأمر بين كل حق وحق ؛ فقد يكون الشيء حقا وغيره حقا فلا يتكاذبان ، ولكنهما في شأنين مختلفين فلا يشهد بعضهما لبعض . أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهدا و **(مصدقا)** لما بين يديه من الكتب .

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلا : ولو أن التحريف أو الضياع الذي نال من هذه الكتب قد ذهب بمعالم الحق فيها جملة لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن ؛ إذ يحق لهم أن يقولوا " إن

البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ليس بينها وبين القرآن هذا التطابق والتصادق، فليس الإيمان بها موجبا للإيمان به " .. بل لو أن هذه البقية ليست عندهم ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين ، لكان لهم مثل ذلك العذر . أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ويدرسونه بينهم فبماذا يعتذرون وأني يذهبون؟! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة **(لما معهم)**

فانظر إلى الإحكام في صنعة البيان : إنما هي كلمة رفعت وأخرى وضعت في مكانها عند الحاجة إليها ؛ فكانت حسما لكل عذر ، وسدا لكل باب من أبواب الهرب ؛ بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم أتمت في خطوة واحدة ...

ثم استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه والافتخار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ،فأوسعهم إكذابا وتفنيدا ، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم ، قد أشربوه في قلوبهم حتى أصبح مرضا مزمنا . وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التي لا سبيل لإنكارها في انتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره : (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين؟..)

(١) تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة ؛ إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه .

غير أن هذا المعنى إنما أخذ استنباطا من أقوالهم ، وإلزاما لهم بما لمذهبهم و ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم . فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد.

وهكذا كانت كلمة (مصدقا لما معهم) مغلاقا لما قبلها مفتاحا لما بعدها . فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام !... وتنزيلا له على قدر حاجتها وفي وقت تلك الحاجة ! ....

(٢) وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم ، فلم يقل :" فلم قتل آباؤكم أنبياء الله ، واتخذوا العجل ، وقالوا سمعنا وعصينا ؟" ؛ إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة في بادئ الرأي ، فكان يحق لهم في جوابها أن يقولوا :" ومالنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، **ولا تزر وازرة وزر أخرى**"

ولو زاد مثلا : " قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم " لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتتراخى حبل الكلام ، وفترت قوته فكان اختصار الكلام على ما ترى - بوقفهم بادئ ذي بدء في موقف الاتهام - إسراعا بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيها في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية في الجرم فعلى أيهم وضعت يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم ؛ لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم ...

(٣) وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحا بإخراج الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويرا لها بصورة الأمر الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية

(٤) ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح بابا من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم ، وبابا من الأطماع لأعدائه في محاولاتهم لقتله . فانظر كيف احترس عن ذلك كله بقوله (من قبل) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم وثبت بها قلب حبيبه ....

(٥) وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية وهي جريمة الشرك ؛ فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نكرا في العقول نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل إلها بل طوى هذا المفعول الثاني استبشاعا للتصريح به في صحبة الأول .

(٦) ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضا عن كل زيادة لا تمس إليها حاجة البيان، فقد قال إن القرآن مصدقا لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق : أفي أصول الدين فحسب ، أم في الأصول والفروع جميعا ،أم في الأصول وبعض الفروع وإلى أي حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل الا بقدر معلوم . وماذا يعني الداعي إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع !
وقال إنهم يقتلون انبياء الله. فمن هم أولئك الأنبياء ؟... ليبحث علماء التاريخ!
وقال إن موسى جاءهم بالبينات .فكم هي ؟ وما هي ؟
وقال إنه أخذ عليهم ميثاقهم . فعلى أي شيء كان الميثاق ؟
إن حكمة البيان القرآني لأجلُّ من أن تعرض لهذه التفاصيل في مثل هذا الموضع ولو ذكرت ها هنا لكان مثلها من يسأل : لم ضربت عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاما اسمه كذا واسم أبيه كذا وحليته كذا وولد في عام كذا . ألا ترى أن هذا زائد وكثير ؟

(٧) ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف لخرجنا عن حد التمثيل الذي قصدنا إليه . فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه في كلام الناس ذلك أن المرء إذا اهمه أمر من الدفاع أو الإقناع أو غيرهما بدت على كلامه مسحة الانفعال بأغراضه وكان تأثيره بها في نفسك على قدر تأثره هو.. ومن هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض، قوة تؤثر ولا تتأثر »

❖ ❖ ❖

❖ المحاضرة السابعة

❖ نظرية التصوير الفني عند سيد قطب

والتصوير الفني من أبرز خصائص الأسلوب القرآني ، وقد مرَّ بنا أن سيد قطب رحمه الله حين تأمل السور القلائل التي تأثر بها من تأثر في بداية الدعوة لم يجد فيها علوماً كونية ولا تشريعية ، وليس فيها أخبارٌ عن الغيب ،ولم يقتنع بما انتهى إليه الباحثون في إعجاز القرآن قبله، وإن كان ما كتبه الإمام عبدالقاهر هو أقرب التأويلات لهذا الإعجاز عنده ؛ حيثُ يقول:

« رحم الله **عبد القاهر** لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها . إن الجمال في ﴿ اشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيبًا ﴾ . ﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيونًا ﴾ هو في ذلك الذي قاله من ناحية النظم . وفي شيء آخر وراءه ، هو هذه الحركة التخييلية السريعة ، التي يصورها التعبير : حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة ، وحركة التفجير التي تفور بها الأرض في ومضة . فهذه الحركة التخييلية تلمس الحسّ ، وتثير الخيال ، وتشرك النظر والمخيلة في تذوق الجمال . وهي في ﴿ اشْتَعَلَ الرَّأسُ شَيبًا ﴾ أوضح وأقوى ؛ لأن حركة الاشتعال هنا حركة ممنوحة للشيب. وليست له في الحقيقة ، وهذه الحركة هي عنصر الجمال الصحيح . ... ففي التعبير بالاشتعال عن الشيب جمال ، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس جمال آخر ، يكمل أحدهما الآخر . ومن كليها ، لا من أحدهما ، كان هذا الجمال الباهر ! وهذا هو الذي وقف دونه عبدالقاهر ؛ وإن كان يبدو أنه كان يحسّه في ضميره ، ولا يصوره كاملا في تعبيره .... وأيا ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز فإنها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة ، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نص على حدة ، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه إلى الحد الذي تستطيع – دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله . »

وكان يرى أن هذه المرحلة هي مرحلة إدراك مواضع الجمال المتفرقة ، أما مرحلة إدراك الخصائص العامة والأصول العامة للجمال الفني ، وأهم مزايا القرآن الفنية فلم يصلوا إليها أبدا. وبذلك بقي مُغفلا خافيا ، وهو ما بذل الجهد لإبرازه في كتابه (**التصوير الفني في القرآن**) .

التصوير الفني

يقول سيد قطب : « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ؛ وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ وإذا

النموذج الإنساني شاخص حي ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة ، وفيها الحركة ؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ؛ وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ؛ حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ؛ وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة . **إنها الحياة هنا ، وليست حكاية الحياة !**

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية ؛ وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي ، إنما هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ، ولا شخوص تعبر ، أدركنا أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن .

والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله ، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرناها ؛ حيثما شاء أن يعبّر عن **معنى مجرد** ، أو **حالة نفسية** ، أو **صفة معنوية** ، أو **نموذج إنساني** ، أو**حادثة واقعة** ، أو **قصة ماضية** ، أو **مشهد من مشاهد القيامة** ، أو **حالة من حالات النعيم والعذاب** ، أو **حيثما أراد أن يضرب مثلا في جدل أو محاجّة** ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقا ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس ، والمتخيل المنظور .

وهذا هو الذي عنيناه حينما قلنا : **إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن** . فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة ، يفتن في استخدامها بطرائق شتى ، وفي أوضاع مختلفة ؛ ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة : **قاعدة التصوير** .

ويجب أن نتوسع في معنى التصوير ، فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالتخييل ؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل . وكثيرا ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان .

وهو تصوير حي منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة . تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر والوجدانات ، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية ، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة .

والآن نأخذ في ضرب الأمثال ، ونبدأ بـ **المعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية :**

١- يريد أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة إطلاقا ، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل . هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة . ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية :

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ..... ﴾ ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء ، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ وقد اختير له اسم (**الجمل**) خاصة في هذا المقام ؛ ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر ، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة ، في أعماق النفس ، وقد وردا إليها من طريق العين والحس – تخييلا – وعبرا إليها من منافذ شتى، لا من منفذ الذهن وحده .

٢- ويريد أن يبين أن الله سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئا ، وستضيع إلى غير عودة فلا يملكون لها ردا ، فيقدم هذا المعنى مصورا في قوله :﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً** ﴾ ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور ، لتعطيك معنى أوضح وآكد للضياع الحاسم المؤكد .

٣- أو يرسم هذه الصورة المطوّلة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه :﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** ﴾ فتزيد الصورة حركة وحياة ، بحركة الريح في يوم عاصف ، تذرو الرماد وتذهب به بددا ، إلى حيث لا يتجمع أبدا .

٤- ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء ، والتي يتبعها المنّ والأذى ، لا تثمر شيئا ولا تبقى . فينقل إليهم هذا المعنى المجرد ، في صورة حسية متخيلة على النحو التالي :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً** ..... ﴾

ويدعهم يتملون هيئة الحجر الصلب المستوي ، غطته طبقة خفيفة من التراب ، فظُنت فيه الخصوبة ؛ فإذا وابل من المطر يصيبه ؛ وبدلا من أن يهيئه للخصب والنماء – كما هي شيمة الأرض حين تجودها السماء – إذا به يتركه صلدا ؛ وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره ، وتخيل فيه الخير والخصوبة .

٥- ثم يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء ، معنى الذهاب بالصدقة التي يتبعها

المن والأذى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ** .... ﴾

فهنا الوجه الثاني للصورة ، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى ، فهذه الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة الله ، هي في هذه المرة كالجنة ، لا كحفنة من تراب ؛ وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان ، فالجنة هنا فوق **ربوة** ؛ وهذا هو الوابل مشتركا بين الحالتين ، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق ، وفي الحالة الثانية يربي ويخصب . وفي الحالة الأولى يصيب الصفوان ، فيكشف عن وجه كالح ؛ وفي الحالة الثانية يصيب الجنة ، فيمتزج بالتربة ويخرج " **أُكلاً** " . ولو أن هذا الوابل لم يصبها ، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ، ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها ! " **فإن لم يصبها وابل فطل** " .

وتأمل التناسق العجيب في جو الصورة ، و تماثل جزئياتها ، وفي توزيع هذه الجزئيات على الرقعة فيها . حيث يكون الصفوان تغشيه طبقة خفيفة من التراب . مثلا للنفس المؤذية تغشيها الصدقة تبذل رياء (والرياء ستار رقيق يخفي القلب الغليظ) وحيث توضع الجنة فوق ربوة ، في مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان ..!

٦- ويريد أن يبرز معنى : أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه ، وينيله ما يرجوه ؛ وأن الآلهة التي يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئا ، ولا تنيلهم خيرا ، ولو كان الخير قريبا ؛ فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة :﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ** ﴾.

وهي صورة تلح على الحس والوجدان ، وتجتذب إليها الالتفات ، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة ؛ وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ : شخص حي شاخص ، باسط كفيه إلى الماء ، والماء منه قريب ، يريد أن يُبلغه فاه ، ولكنه لا يستطيع ، ولو مدّ مدّة فربما استطاع ! .

٧- ويريد أن يجسم **ضعف هؤلاء الآلهة** ، أو الأولياء من دون الله عامة ، ووهن الملجأ الذي يلجأ إليه عبّادهم حين يحتمون بحمايتهم ، فيرسم لهذا كله صورة مزدوجة : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾فهم عناكب ضئيلة واهنة ، تأوي من حمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيوت العنكبوت أوهن وأضأل ، ﴿ **وإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ** ﴾ ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهية المنظورة ، فهم يضيفون إلى الضعف والوهن ، جهلا وغفلة ، حتى ليعجزون عن إدراك البديهي المنظور .

٨- ويريد أن يبين أن الذي يشرك بالله ، لا مَنبت له ولا جذور ، ولا بقاء له ولا استقرار ، فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات ، عنيفة الحركات : ﴿ **... وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ هكذا في ومضة . يخر من السماء من حيث لا يدري أحد ، فلا يستقر على الأرض لحظة . إن الطير لتخطفه . أو إن الريح لتهوي به .. وتهوي به في مكان سحيق ! حيث لا يدري أحد كذلك ! وذلك هو المقصود .

وكما يصور المعاني المجردة يصوّر **الحالات النفسية والمعنوية** :

١- يريد أن يبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددين ، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال فيرسم هذه الصورة المحسّة المتخيلة :

﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا** .... ﴾ .

فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض (**ولفظ الاستهواء لفظ مصوّر لمدلوله**) ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه ، فتكون له راحة ذي القصد الموحد – ولو كان في طريق الضلال – ولكن هناك من الجانب الآخر ، إخوان له يدعونه إلى الهدى ، وينادونه : " **ائتنا** ". وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء " **حيران** " موزع القلب . لا يدري أي الفريقين يجيب ، ولا أي الطريقين يسلك ، فهو قائم هناك شاخص متلفت !

٢- ويريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهيئ الله لهم المعرفة ، فيفرون منها كأن لم تهيأ لهم أبدا ؛ ثم يعيشون بعد ذلك هابطين ، تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم ، بما علموا وبما جهلوا ؛ فلا هم استراحوا بالغفلة ، ولا هم استراحوا بالمعرفة ، فيرسم لهم هذه الهيئة : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ .

وفي الصورة تحقير وتقذير طبعا ، ولكنها من الوجهة الفنية صورة شاخصة ، فيها الحركة الدائبة . وهي صورة معهودة ، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى ، وهكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني ، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن .

٣- ويريد أن يوضح **حالة تزعزع العقيدة** ، حيث لا يستقر الإنسان على يقين ؛ ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ ؛ ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته ، بعيدة عن ميزان

الربح والخسارة ، فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح ، وتوشك على الانهيار : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ** ﴾.

إن الخيال ليكاد يجسم هذا " **الحرف** " الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس ، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم ، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ؛ وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع ، لأنها تنطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس .

وإني لأذكر الآن تلك الصورة التي ارتسمت في خيالي وأنا طفل أقرأ القرآن في المدرسة الأولية ، حين وصلت إلى هذه الآية .. ترى يبعد تصوري الآن كثيرا عن هذه الصورة الساذجة ؟ لا أظن ! فالاختلاف الذي طرأ هو مجرد إدراكي اليوم أن هذا مثل يضرب ، لا حقيقة تشهد .

٤- و تلك الصورة التي رسمها للمسلمين قبل أن يسلموا ، يوم أن كانوا معرَّضين لجهنم بما هم فيه من الكفر ، فقال : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا .... ﴾ هكذا : " **كنتم على شفا حفرة من النار** " ، موشكين على الوقوع ، تكاد أقدامكم تزلّ فتهوون . وليس المهم لدينا – في هذا المجال – دقة التشبيه وصدقه ، إنما المهم أولا هو هذه الصورة القلقة المتحركة الموشكة في الخيال على الزوال ، ولو استطاعت ريشة مصوّر بالألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيلة في صورة صامتة لكانت براعة تحسب في عالم التصوير . وهو يملك الريشة والألوان . وهنا ألفاظ فحسب يصوّر بها القرآن .

ثم ننظر إلى جمال التعبير من زاوية أخرى : إذ يرسم هذه الصورة ، ثم يجعل هذه الحفرة من النار ، ويجعلهم على شفا منها ، فيطوي الحياة الدنيا كلها – وهي الفاصل بينهم وبين النار – ونجعلهم – وهم بعد أحياء ، وهم بعد في الدنيا – واقفين هذه الوقفة، على شفا حفرة من النار !

ومن بين الحالات النفسية التي يصورها القرآن ، ما يرسم " **نموذجا** " **إنسانيا واضحا للعيان** :

مثال ذلك " من يعبد الله على حرف " وقد تحدثنا عنها هناك ، فنزيد عليها هذه الأمثال :

١- يريد أن يشخص حالة العناد السخيف ، والمكابرة العمياء ، التي لا يجدي معها حجة ولا برهان ، فيبرز " نموذجا إنسانيا " في هذه الكلمات : ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ** ﴾ أو يقول : ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ** ﴾ .

٢- ويريد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق ، حتى إذا جاءه الفرج نسي الله الذي فرّج عنه . ولكنه لا يقولها في مثل هذا النسق الذهني ، إنما يرسم صورة حافلة بالحركة المتجددة ، والمشاهد المتتابعة ، ويرسم في خلالها " نموذجا إنسانيا " كثير التكرار في بني الإنسان : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ..** ﴾ .

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك ، وتموج وتضطرب . وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض ؛ ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد ، أبلغ أداء وأوفاه .

٣- ويريد أن يبرز حالة " **نموذج** " من الناس ظاهرهم يُغري ، وباطنهم يُؤذي . فيرسم لهم صورة كما يأتي : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ فيستعيض من الوصف الحركة والتصرف ، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن ، في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال .

٤- وفريق من الناس ضعيف العقيدة . ضعيف العزيمة ، مستور الحال ، لا يتبين ضعفه في فترة الرخاء ، هؤلاء يصورهم نموذجا واضحا في هذه الكلمات : ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ** ﴾ ومنظر المغشي عليه من الموت معهود ، فما هو إلا أن يذكر التعبير ، حتى تبرز صورتهم في الضمير ، مصحوبة بالسخرية والتحقير .

وليست هذه حادثة تقع مرة وتمضي ، ولكنه نموذج مكرر في بني الإنسان ، لا يتقيد بالزمان والمكان .

❖ ❖ ❖

.... ولنأخذ الآن في ضرب الأمثلة على التصوير المشخص ، لـ (**مشاهد الحوادث الواقعة ، والأمثال المضروبة ، والقصص المروية**) ؛ فالطريقة فيها واحدة ، والشبه بينها قريب :

١- ها هو ذا يتحدث عن (الهزيمة) فيرسم لها مشهدا كاملا تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة ، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية ، وكأنما الحادث معروض من جديد ، دون أن يغفل منه قليل أو كثير :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً . إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً. وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ﴾

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة ، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف ، لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك ، المساوق في حركته لحركة الموقف كله ؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان ، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائقة . وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالا شديدا . وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل . يقولون : ﴿ مَا وَعَدَنَا اللهُ ورسُولُه إِلاَّ غُرُورَا ﴾ ، ويقولون لأهل المدينة : لا بقاء لكم هنا . ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر . وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون : إن بيوتنا مكشوفة ، وليست في حقيقتها مكشوفة : " إن يريدون إلا فرارا " .

وهكذا لا تفلت في الموقف حركة ولا سمة ، إلا وهي مسجلة ظاهرة ، كأنها شاخصة حاضرة .. تلك حادثة وقعت بالفعل . ولكن صورتها ترسم " الهزيمة " مطلقة من كل ملابسة ، وما يزيد عليها أو ينقص منها إلا جزئيات في الواقع ! أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر في كل زمان ، حيثما التقى جمعان ، وتعرض أحدهما للخذلان .

٢- وقريب من هذه الصورة صورة أخرى للهزيمة أيضا ، وهي كذلك صورة باقية ، لا حادثة مفردة . وذلك حيث يقول : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾

ليخيل إلى أنني أشهد المنظر اللحظة بكل من فيه وكل ما فيه !

❖ ❖ ❖

ثم نأخذ في عرض نماذج من **الأمثال القصصية** التي تضرب في القرآن :

١- ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة – جنة الدنيا لا جنة الآخرة – وها هم أولاء يبيتون في شأنها أمرا . لقد كان للفقراء حظ من ثمر هذه الجنة ، ولكن الورثة لا يشاءون . إنهم ليريدون أن يستأثروا بها وحدهم ، وأن يحرموا أولئك المساكين حظهم . فلننظر كيف يصنعون : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴾

لقد قر رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئا للمساكين . فلندعهم على قرارهم ، ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل ؛ حيث يختفون هم ، ويخلو منهم المسرح . فماذا يرى النظارة ؟ هناك مفاجأة تتم خلسة ، وحركة خفية كحركة الأشباح في الظلام ! " فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم (١)[١٥] وهم لا يشعرون .

والآن ها هم أولاء يتصايحون مبكرين ! وهم لا يدرون ماذا أصاب جنتهم في الظلام : ﴿ **فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ . فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ** ﴾ ليمسك النظارة ألسنتهم فلا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم ؛ وليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم ، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين ، يتنادون متخافتين ، خشية أن يدخلها عليهم مسكين ! ليكتموا ضحكات السخرية ! بل ليطلقوها ! فها هي ذي السخرية العظمى : ﴿ **وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ** ﴾ أجل !

إنهم لقادرون الآن ، على المنع والحرمان ، حرمان أنفسهم على الأقل !

وها هم أولاء يفاجأون ، فليضحك كالنظارة كما يشاءون : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ** ﴾ ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار ، فقد ضللنا إليها الطريق ! .. فلتتأكدوا يا جماعة ! .. ﴿ **بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ** ﴾ .. وهذا هو الخبر اليقين !

والآن قد سقط في أيديهم : ﴿ **قَالَ أوسَطُهُم أَلَمْ أَقُل لكُم لَولا تُسَبِحُونَ** ﴾اي والله ! هلاّ سبحتم الله واتقيتموه ؟ ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَ رَبِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ** ﴾ . الآن وبعد فوات الأوان ! . وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين ، ها هم أولاء يصنعون :﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَلاومُونَ** ﴾

ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعا بالخطيئة ، عسى أن يفيدهم الاعتراف الغفران ، ويعوضهم من الجنة الضائعة جنة أخرى : ﴿ **قَالُوا يَاوِيلَنَا إِنّا كُنَّا طَاغِين . عَسَى رَبُنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيرَا**

---

١٥) كالمقطوعة الثمار .

مِنهَا إِنَّا إِلَى رَبِنَا رَاغِبُونَ ﴾ !

١ - والآن فإلى صاحب جنة أخرى ، بل **صاحب جنتين أكبر من الأولى** . إن له لقصة مع صاحب له ، ليس من ذوي الجنان ، ولكن من ذوي الإيمان . وكلاهما " نموذج إنساني " لطائفة من الناس : صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى ، التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوة ولا الجاه . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلا على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ....** ﴾ .

وبهذا ترتسم صورة الجنتين مكتملة ، في ازدهار وفخامة . وهذا هو المشهد الأول . فلننظر إلى المشهد الثاني : ﴿ .... **فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً** ﴾. ويبدو أنه قال قولته هذه وهما في الطريق إلى الجنتين ، أو وهما على الباب ، إذ جاء بعده : ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً** ﴾ فهاهو ذا في أوج زهوه وبطره ، وتعاليه وازدهائه . فماذا ترى يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير ، الذي لا جنة له ولا مال ، ولا عصبة له ولا نفر ؟ إن صاحبه لمؤمن ، فما تشعره كل هذه المظاهر بالهوان ، وما تنسيه عزة ربه الديّان ، وما تغفله عن واجبه الصحيح . في رد صاحبه البطر إلى جادة الطريق ، ولو استدعى ذلك أن يجبهه بالتقريع ، وأن يذكره بمنشئه الصغير من التراب المهين :

﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً . لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً . وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً . فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً . أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً** ﴾. وهنا ينتهي هذا المشهد بين الصاحبين : أحدهما منتفش كالديك ، ازدهاه ما في جنته من ازدهار ، والآخر موقن بالله ، مستعز بالايمان ؛ يذكر صاحبه ويؤنبه ، ويبصره بما كان يجب أن يصنع إذ رأى جنته . ويبدو أن صاحبه لم يستمع إليه – وهذا طبيعي في هذا الموقف – فهو يقسو عليه قسوة الغاضب لدينه ، ويدعو على جنته أن يرسل الله عليها الصواعق ، فتصبح جرداء ملساء ، تزل فيها القدم وتزلق ؛ أو أن يصبح

ماؤها غائرا لا يستطيع أن يطلبه ، فضلا على أن يستخرجه .. ثم يفترق الصاحبان وهما متغاضبان . قلننظر بعد ماذا يكون ؟

﴿ **وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** ﴾ . لقد استجاب الله دعوة الرجل المؤمن المتحدَّي بلا ضرورة . فلنشهد صاحبنا شاخصا يقلب كفيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ولندعه يندم : ﴿ **يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً** ﴾ ولنسدل الستار على منظر الدمار والاستغفار .

❖ ❖ ❖

والآن فلنعرض شطرا من **قصص حقيقية** ، بعدما عرضنا قصص الأمثال .

١- لنعرض **مشهدا من قصة إبراهيم** ، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل ، وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن ، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان .

﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾

لقد انتهى الدعاء ، وانتهى المشهد ، وأسدل الستار . هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء ، هي التي أحيت المشهد وردته حاضرا . فالخبر : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ كان كإنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد : البيت ، وإبراهيم وإسماعيل ، يدعوان هذا الدعاء الطويل .

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز ، يزيد وضوحا لو فرضت استمرار الحكاية ، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل :وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان : ربنا ... إلخ . إنها في هذه الصورة **حكاية** ، وفي الصورة القرآنية **حياة** ... وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة .. وذلك هو الإعجاز .

٢- ثم لنعرض **مشهدا من قصة الطوفان** : ﴿ **وَهْيَ تَجْرِي بِهِم فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ** ﴾. وفي هذه اللحظة الرهيبة ، تتنبه في نوح عاطفة الأبوة ، فإن هناك إبنا له لم يؤمن ، وإنه ليعلم أنه مُغرق مع المغرقين . ولكن ها هو ذا الموج يطغى ، فيتغلب " الإنسان " في نفس نوح على " النبي " ، ويروح في لهفة وضراعة ينادي إبنه جاهرا : ﴿ **وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ معَنَا ، وَلا تَكُنْ مَعَ**

الْكَافِرِين ﴾. ولكن البنوة العاقة لا تحفل هذه الضراعة ؛ والفتوة العاتية لا ترى الخلاص إلا في فتوتها : ﴿ **قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ** ﴾ . ثم ها هي ذي الأبوة الملهوفة ترسل النداء الأخير : ﴿ **قَالَ لا عَاصِمَ اليَومَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِم** ﴾وفي لحظة تتغير صفحة الموقف ، فها هي ذي الموجة العاتية تبتلع كل شيئ ﴿ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوجُ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِين** ﴾...

إن السامع ليمسك أنفاسه في هذه اللحظات القصار ؛ " وهي تجري بهم في موج كالجبال " ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء ؛ وابنه الفتى المغرور ، يأبى إجابة الدعاء ؛ والموجة القوية العاتية ، تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة . كما يقاس بمداه في الطبيعة – حيث يطغى الموج على الذرى والوديان . وإنهما لمتكافئان ، في الطبيعة الصامتة ، وفي نفس الإنسان .

❖ ❖ ❖

ثم لننتقل إلى **مشاهد القيامة** ، وإلى **صور النعيم والعذاب** فقد كان لها من التصوير الفني أوفى نصيب :

١- ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ. خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ. مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ** ﴾ .

فهذا مشهد من مشاهد الحشر ، مختصر سريع ؛ ولكنه شاخص متحرك . مكتمل السمات والحركات . هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة ، كأنها جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور هذا المنظر العجيب) وهذه الجموع تسرع في سيرها نحو الداعي ، دون أن تعرف لمَ يدعوها ، فهو يدعوها " إلى شيء نكر " لا تدريه . " خشعا أبصارهم " وهذا يكمل الصورة ؛ ويمنحها السمة الأخيرة . وفي أثناء هذا التجمع والإسراع والخشوع " يقول الكافرون هذا يوم عسر " . فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه الفقرات القصار ؟ وإن السامعين ليتخيلون اليوم النكر . فإذا هو حشد من الصور . صورهم هم – وإنهم لمن المبعوثين – يتجلى فيها الهول الحي . الذي يؤثر في نفس كل حي !

٢- وهذا مشهد آخر من مشاهد الإسراع والخشوع ، أشد في النفس هولا وأكمد في التصوير لونا : ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء** ﴾أربع صور متتابعة متواكبة ، أو أربعة مشاهد لرواية واحدة ، يتلو بعضها بعضا في الاستعراض ، فتتم بها صورة شاخصة في الخيال ، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام ، يجللها ظل كئيب ساهم ، يكمد

الأنفاس . وهي صورة ترسم كذلك في وسط حي : هؤلاء آدميون ، بينهم وبين المستمعين صلة الجنس المشترك ، والحس المتشابه ؛ فهي ترتسم في نفوسهم حية ، ويصل الشعور بها من هؤلاء إلى هؤلاء بالمشاركة الوجدانية وبالتخيل المحسوس ، فإذا قرأها القارئ تمشت رعدة الهول في حناياه ، كأنما يلقاه !

٣- ثم تأتي صورة الهول العظمى ، التي لا تغني الألفاظ عنها ، فلننقلها لتعبر عن نفسها : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** ﴾. مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي ، وبكل حامل تسقط حملها ، للهول المروع ينتابها ؛ وبالناس سكارى وما هم بسكارى يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملاه ، والهول الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن بوقعه في النفوس الآدمية : المرضعات الذاهلات عما أرضعن ، والحوامل الملقيات حملهن ، والسكارى وماهم بسكارى ﴿ ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

٤- وإذا كانت الصور الثلاثة الماضية ترسم الهول ظاهرا للعيان ، فهناك صور لا يدركها إلا الوجدان : ﴿ **لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ ﴿ **وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً** ﴾. إنه لا يوجد أخصر من هذا ولا أدق في تصوير اشتغال القلب والفكر بالهم الحاضر القاهر ، حتى لا موضع لسواه ، ولا تلفت ولا انتباه .

ونختم مشاهد القيامة هنا ، بهذا المشهد المتعدد المناظر ، المتنوع المشاهد ، المتفرد في طريقة العرض والحوار : ﴿ **وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ . وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ . وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾.

فها نحن أولاء أمام مشاهد يتلو بعضها بعضا . ها نحن أولاء أمام المؤمنين في الجنة ، والكافرين في النار . ينادي الأولون الآخرين : " قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما

وعدكم ربكم حقا ؟ " – وفي هذا السؤال من التهكم المر ما فيه – فيجيء الجواب من هناك " نعم " ! حيث لا مجال لنكران أو محال . وعندئذ يؤذن بينهما مؤذن : ﴿ **أَنْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الظَّالِمِين** ﴾ .

ثم نحن أولاء أمام الأعراف – الفاصلة بين الجنة والنار – وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء ؛ فهم يتوجهون إلى أصحاب الجنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون إلى أصحاب النار بالتبكيت والإيلام : " أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ؟ " أنظروا أين هم الآن . إنهم في الجنة يتلقون التكريم !

وأخيرا ها هم أولاء أصحاب النار يستغيثون ، طالبين من أصحاب الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله ، فلديهم من كل شيئ فيض غزير ، فليفيضوا منه على الملهوفين ، ولكن الجواب هم المعذرة والتذكير :﴿ **إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِين** ﴾ .

تلك من صور القيامة ، ومن صور الحوار فيها والخصام ، ومن صور النعيم فيها والعذاب . فهل كان القارئ في أثناء استعراضها يحس أن هذا كله آت في المستقبل البعيد ؟ أم يحس أنه واقع في الحاضر المشهود ؟ أما أنا فقد نسيت ، نسيت أني أستعرض هذه المشاهد في ثوبها الفني ؛ وحسبتني أشهدها في الواقع لا في الخيال . وذلك أثر الإعجاز في العرض والتشخيص ، وهو إعجاز يزيد قيمته أنه – كما قلت مرارا – يعتمد على الألفاظ وحدها في هذا التصوير .

١- وهذا مشهدٌ من مشاهد من **مشاهد الطبيعة الصامتة الخالدة** ، يلفت النظر إليه دليلا على قدرة الله : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسئًا وَهُوَ حَسِير** ﴾

هذه لوحة طبيعية منسقة يوجه إليها البصر ، لينقل البصر ما يراه إلى النفس ، ليقع في النفس ما يقع من الأثر . لتؤمن بقدرة الله " الذي خلق سبع سماوات طباقا " وهي لوحة معروضة في كل حين . ولكنك تقرأ هذه الآيات ، فتلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا الوجود . وتلك كطريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة . ومشاهد الحياة .

❖ ❖ ❖

التخييل الحسي والتجسيم

حينما نقول : إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، **فعلى أية قاعدة يقوم هذا التصوير ؟** لقد ألمحنا إلى شيء من ذلك في مفتتح الفصل السابق ، حينما قلنا : " إنه يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني .... و ... إلخ

وكل ما تقدم من الأمثلة في الفصل السابق يصلح برهانا على هذه الظاهرة ... ولكننا نختار بالإضافة إليها ما له دلالة خاصة على هذه الطريقة المعينة : **ظاهرة التخييل الحسي والتجسيم**.

قليل من صور القرآن هو الذي يعرض صامتا ساكنا ... أما أغلب الصور ففيها حركة مضمرة أو ظاهرة ، وهذه الحركة ليست مقصورة على مشاهد القيامة ، ولا صور النعيم والعذاب ، أو صور البرهنة والجدل . بل إنها لتلحظ كذلك في مواضع لا ينتظر أن تلحظ فيها . هذه الحركة هي التي نسميها " **التخييل الحسي** " . وهي التي يسير عليها التصوير في القرآن لبث الحياة في شتى الصور ، وظاهرة أخرى تتضح في تصوير القرآن وهي " **التجسيم** " : تجسيم المعنويات المجردة ، وإبرازها أجساما أو محسوسات على العموم ... والآن نأخذ في ضرب الأمثال .

١- لون من ألوان " **التخييل** " يمكن أن نسميه " **التشخيص** " يتمثل في **خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية** ، ... وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية ، وخلجات إنسانية ، تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطي .

هذا هو الصبح يتنفس : ﴿ **والصُّبْحِ إِذَا تنَفَّسَ** ﴾ . فيخيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه ، وهو يتنفس ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء ، على وجه الأرض والسماء . أو هذا هو الليل يسري : ﴿**واللَّيلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ . فتحس سريانه في هذا الكون العريض ، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد !

وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم ولكن : ﴿**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** .... ﴾ وإنه لسباق جبار ، لا يني أو يفتر في ليل أو نهار . وهذه هي الأرض " **هامدة** " مرة و"**خاشعة** " مرة ، ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا : ﴿ .... **وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ . ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ... ﴾ وهكذا تستحيل الأرض الجامدة . كائنا حيا بلمسة واحدة في لفظة واحدة .

وهذا هو الغضب ، أو هذا هو الروع ، أو هذه هي البشرى ، تهيج وتسكن ، وتوحي وتسكت ؛ وتجيء وتذهب : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ** .... ﴾ ﴿ **فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ** ﴾ .

٢- ولون من ألوان " **التخييل** " يتمثل في تلك الصور المتحركة التي يعبر بها عن حالة من الحالات أو معنى من المعاني . فصورة الذي يعبد الله على حرف ، وصورة المسلمين قبل أن يسلموا ، وهم ﴿ **عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ** ﴾ . وصورة الذي ﴿ **أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ**

جَهَنَّم ﴾ . كلها صور تخيل للحس حركة متوقعة في كل لحظة ، وتتم هذه الحركة في الصورة الأخيرة ، وقريب من هذه الصور في التخييل صورة ولوج الجمل في سم الخياط . الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة بعد عمر طويل . فالخيال يظل عاكفا على تمثل هذه الحركة العجيبة التي لا تقف ما تابعها الخيال !

٣- ولون من ألوان " **التخييل** " يتمثل في الحركة المتخيلة ، التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات مثل :﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً** ﴾.

وقد سجلنا صورة الهباء المنثور ، التي هي صورة حسية لإضاعة الأعمال . فالآن تلفتنا فيها لفظة " **فقدمنا** " ذلك أنها تخيل للحس حركة القدوم التي سبقت نثر العمل كالهباء . وهذا التخييل يتوارى بكل تأكيد لو قيل : وجعلنا عملهم هباء منثورا ، حيث كانت تنفرد حركة النثر وصورة الهباء ، دون الحركة التي تسبقها : حركة القدوم .

ومثلها : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا** ﴾. فكلمات " **نرد على أعقابنا** " تخيل حركة حسية للارتداد في موضع الارتداد المعنوي ، وتمنح الصورة حياة محسوسة ، ومن هذا القبيل : ﴿ **وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ في موضع : لا تطيعوا الشيطان فإن كلمتي : **تتبعوا ، وخطوات** ، تخيلان حركة خاصة ، هي حركة الشيطان يخطو والناس وراءه يتبعون خطواته . وهي صورة حين تجسم هكذا تبدو عجيبة من الآدميين ، وبينهم وبين الشيطان الذي يسيرون وراءه ، ما أخرج أباهم من الجنة !

ولون من ألوان " التخييل " يتمثل في تلك الحركات السريعة المتتابعة ، ومنها : صورة الذي يشرك بالله ﴿ **فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ . وشبيه بها في سرعتها وتعدد مناظرها تلك الحركة المتخيلة في قوله : ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ وتلك صورة عجيبة ، فمن يئس من نصرة الله لنبيه ، وضاق صدره ، وبلغ حنقه على هذه الحال مبلغا لا يطيقه ، فليحاول أن يغير من هذه الحال ما استطاع ، ما دام لا يصبر ، ولا ينتظر وعد الله بالنصر .. ليمدد إلى السماء **بحبل يتعلق به ليصعد عليه** ، فإذا لم يجده هذا ، فليقطع هذا الحبل الممدود ، ثم لينظر : هل أفلح تدبيره هذا في إذهاب ما يغيظه ! لينظر، بعد قطع حبله الممدود ، وبعد **السقطة التي يترقبها الخيال !**

وأما " **التجسيم** " فقد وردت له أمثلة كثيرة في فصل " **التصوير الفني** " كذلك . ومنه كل التشبيهات التي جيء بها لإحالة المعاني والحالات صورا وهيئات . نذكر منها : ﴿ **مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ و ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ**

صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ و﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِم كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .... ﴾....الخ .

ومن هذا النوع : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ومن تجسيم المعنويات : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾فالتقوى زاد أو ﴿ صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً ﴾ فدين الله صبغة مُعلمة،أو ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً ﴾ فالسلم مما يدخل فيه .

- ويتحدث عن **حالة نفسية معنوية هي حالة التضايق والضجر والحرج** . فيجسمها كحركة جثمانية : ﴿ .... وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ .... ﴾ فالأرض تضيق عليهم ، ونفوسهم تضيق بهم كالأرض ؛ ويستحيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقا حسيا أوضح وأوقع ؛ وتتجسم حالة هؤلاء الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول ، فأحسوا بهذا الضيق الخانق ، وندموا على تخلفهم ذلك الندم المحرج ، حتى لا يجدون لهم ملجأ ولا مفرا ، ولا يطيقون راحة ، إلى أن قبل الله توبتهم ومثله :﴿ أَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ فالقلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقا من شدة الضيق .

وكثيرا **ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن** ، فيصور المعنوي المجرد جسما محسوسا ، ويخيل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير .

١- من ذلك : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء ... ﴾ ﴿ ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾فكأنما **الحق قذيفة** خاطفة تصيب الباطل فتزهقه . وكأنما **الرعب قذيفة** سريعة تنفذ في القلوب لفورها . وكأنما **العداوة والبغضاء مادة ثقيلة** ، تلقى بينهم ، فتبقى إلى يوم القيامة . وكأنما **السكينة مادة مثبتة تنزل** على رسول الله وعلى المؤمنين . وكأنما **للذل جناح يخفض** من الرحمة بالوالدين .

❖ ❖ ❖ ❖

❖ **المحاضرتان الثامنة والتاسعة :**

بعض أسرار التعبير في القرآن الكريم (من أسرار الحرف ، الكلمة ، الجملة)

ألفاظ القرآن :

لا تفضل الكلمة صاحبتها منفردة في قاموس اللغة، من حيث دلالة كل على معناه؛ فكلمة **(قال)** لا تفضل **(تَكَّلم)**، وكلمة (رجل) لا ميزة لها على (أسد) اللهم إلا من ناحية أن بعض الكلمات أسهل جرياً على اللسان من بعض،وأخف نطقاً ؛ فتجد مثلاً كلمة **(النفس)** أسلس من كلمة **(الجرشي)** ، وكلمة **(مرتفعات)** أسلس من كلمة **(مستشزرات)**، وإلا من ناحية كثرة استعمال بعضها وغرابة البعض الآخر، فإذا ما نظمت الكلمة في جملة صارت دالة على نصيبيها من المعنى، وصار من حقنا أن نسأل : لم اختيرت هذه الكلمة دون تلك، ولم آثرنا صيغة على أخرى ؟

وإن الأسلوب قد يروعك ويبهرك، فإذا أخذت مفرداته : كل مفردة على حدة، فقد لا تجد فيها كبير الروعة، ولا قوة أسر ، ولكن عندما انتظمت هذه المفردات في سلك فلاءمت ما قبلها، وارتبطت بما بعدها اكتسبت جمالاً وجلالاً، وقد رأينا ذلك واضحاً جلياً في تحليل الإمام عبد القاهر الجرجاني لقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾هود : آية ٤٤ ، فإنك إذا أخذت كل كلمة على حدتها من غير نظر إلى سياقها والتركيب الذي انتظمت به ؛ فلا تجد لها من التأثير ما تجده لها وهي بين أخواتها .

وإذا أردنا أن ندرك بعضاً من أسرار كل كلمة في موضعها، ونتبين جمال اختيارها فلننظر ما سيقت الآية لتقريره، وهو تصوير ما حدث بعد الطوفان من ابتلاع الأرض ماءها، ونقاء السماء وصفائها، واستواء السفينة على الجودي، وقد طُهِّرت الأرض من رجس المشركين، فقد صور الله ذلك تصويراً حسياً، يؤكد في نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة وخضوعها لأمر الله، فذلك الاضطراب في أرجاء الكون وذلك الماء الطاغي يجتاح نواحي الأرض لم يلبث أن هدأ وسكن واستقر، وعادت الطبيعة إلى هدوئها عندما تلقت أمر الله لها أن تسكن وتهدأ.

ولكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون، أو يروا قائله بُني الفعل للمجهول كما ترى، وأُوثر في نداء الأرض **(يا)** دون الهمزة أو (أيا) لما في هذه من الزيادة تنبيهٍ ليست الأرض بحاجة إليه لأنها رهن أمر الله، وأُوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها، فالمقام هنا يستدعي ذلك التصغير، ويستدعي الإسراع بتلبية الأمر، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضي لإطالة الكلام بـ (أيتها)

وجاءت كلمة (**ابلعي**) هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها، وهو أن تبتلعه بسرعة، فهي هنا أفضل من (**امتصي**) مثلاً ؛ لأن الامتصاص يتم تدريجياً، فلا تدل على الإسراع في التشرب كما في (ابلعي). وفي إضافة الماء إليها (**ماءك**) ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماءها ، فكأنها لم تكلف شططاً من الأمر. ومثل ذلك في : يا سماء أقلعي ، فإن الإقلاع الدلالة على السرعة في الاستجابة للأمر من (توقفي) مثلاً.

ولاحظي هذا التناسق الصوتي بين ابلعي وأقلعي وبين (**غيض**) المبني للمجهول ، مصوراً بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعي ؛ فهم قد رأوا الماء يغيض والأمر يتم، وكأنما حدث الأمر من نفسه، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل .

واختيرت كلمة (**استوت**) دون (رست) لما فيها من الدلالة على الثبات والاستقرار. وبُني الفعل (**قيل**) للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يُعدُّ كثرة حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء، وجاءت كلمة (**بُعداً**) دون هلاكاً مثلاً، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين إنما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض، والسخرية بمن آمن وعمل صلحاً.

ونحس في كلمة(**بعداً**) دلالة على الراحة النفسية التي أحس بها من في الكون بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين، ولعل لاستخدام المصدر الذي يؤكد أن الفعل قم تم أثراً في ذلك.

أو لا تري الآية قد صورت لكِ ما حدث بعد الطوفان أدق تصوير في عبارة موجزة، فها هي ذي الأرض تبتلع ماءها، وهاهي ذي السحب في السماء تنقشع مقلعة، وها هو ذا الماء قد غاض، وعادت الطبيعة كما كانت، فاستقرت سفينة نوح ومن معه على الجودي، وتنفس الكون الصعداء، بعد أن طُهِّر من القوم الظالمين .

تخير اللفظ:

نصل من ذلك كله إلى أن أسلوب القرآن يتأنق في اختيار ألفاظه حروفاً كانت أم كلمات،ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة يستخدم كلاً حيث يؤدي معناه في دقة فائقة، تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان كأنما خلقت له هذه اللفظة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفقت به أختها، لذلك لا نجد في القرآن ترادفاً، بل كل كلمة فيه تحمل إليك معنى جديداً.

لذلك لم يكتفِ القرآن بانتقاء ألفاظه، بل دعا البشر إلى التزام الدقة في اختيار الألفاظ أيضاً. وها هو ذا يبنه المؤمنين إلى انتقاء ألفاظهم ،وأن يتأدبوا مع رسول الله . قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾البقرة : ١٠٤ فنهاهم أن يقولوا (**راعنا**)؛ لأن هذه الكلمة كانت لليهود في العبرية كلمة مثلها يستعملونها في السب، فلما سمعوا

المسلمين يقولونها خاطبوا النبي ﷺ بها على سبيل التهكم به. قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ...﴾ النساء :آية ٤٦

وهذا أحد الوجوه في تفسيرها، الوجه الآخر أنها من الرعونة والجهل ؛ أي (راعناً) ، واختار الطبري أنها راعنا من المفاعلة، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين أي: راعنا نرعاك كحادثنا نحدثك، وسامعنا .. ولهذا السبب نهوا عنها، وجيء لهم بلفظ يعدله في المعنى ، لا شبهة فيه لأحد ، وهو: (انظرنا) لعدم التشبه باليهود، وحتى يسدَّ عليهم منافذ الطعن والسباب .

وهاهو يدعو الأعراب إلى التزام الدقة في التعبير حين قالوا: (آمنا) ، فقال فيهم: ﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات ١٤ ؛ لأن الإيمان نطق اللسان مع التصديق بالقلب ، وهم لم يتجاوزوا القول باللسان، والمتابعة الظاهرة إلى التصديق بالقلب واللفظ المناسب لحالهم (أسلمنا).

ثم انظري إلى بديع الاختيار في هذه الآية، فإن الله حين أغلظ عليهم وجهَّلهم بعدم الدقة في اختيار الألفاظ، أتى بعدها بأداة الاستدراك، حتى لا يكون في الكلام الأول تنفير لهم وإساءة فقال : ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ، لأنهم لم يتجاوزوا القول باللسان، ثم زاد الأمر إيضاحاً ؛ فقال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلْ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. بهذه الدقة، وبهذا الميزان المضبوط والمقياس الدقيق كانت ألفاظ القرآن طبقاً لمعانيه.

وتلك الدقة تظهر في اختيار الكلمة **معرفة** دون **نكرة** مثلاً، وإذا اختيرت معرفة هناك دقة في اختيارها معرَّفة بالإضافة دون العلمية ،أو الموصولية ،أو غيرها، وتظهر في اختيارها **مفردة** دون لفظ **الجمع**، أو هي بذاتها دون **مرادفها** الذي يشترك معها في الدلالة ... وهكذا.

وقد مر بنا أن الجاحظ قد فطن إلى هذا الملحظ الدقيق في استعمال القرآن للكلمة ؛ حيث يقول : « وقد يستخف الناس ألفاظاً يستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن (الجوع) إلا في موضع العقاب أو في موضوع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث .... » [١٦].

١٦) البيان والتبيين : ٤٣/١

من أسرار التعبير بحروف الجر في القرآن :

للحروف أهمية كبيرة ودور جليل في إبراز المقاصد والأغراض، وكثير من دلائل النظم وأسراره تتوقف على إدراك مرامي الحروف، والتسمع لهمسها، وحسبنا أن نعلم كيف يغير الحرف معنى الفعل الذي تعلَّق به، ويقلب دلالته إلى النقيض منها، وحتى يصير للفعل أكثر من معنى حسب الحرف المتعلق به ؛ فهذا الفعل (رغب) يتعدى بـ إلى ، وفي ، وعن ، والباء، ومع كل حرف يتعدى به تتجدد له دلالة غير دلالته مع الحرف الآخر . فأصل الرغبة: السعة في كل شيء، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ وإذا قيل: رغب فيه وإليه اقتضى : الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ وإذا قيل : رغب عنه، اقتضى صرف الرغبة عنه والزهد فيه ، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ و (أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾.

فكيف أفاد فعل الرغبة كل هذه المعاني المختلفة؟ إنها الحروف بما تخلعه من معانيها على معاني متعلقاتها، وأثر العدوى الحاصلة من الارتباط بالحرف، فهو حين يعدي بـ (في) التي تقتضي أن المرغوب احتوى الرغبة كما يحتوي الظرف المظروف أنبأ ذلك عن معنى الحرص، وحين عُدي بـ (إلى) التي تدل على انتهاء الغاية، أفاد انصراف الراغب إلى مرغوبه ، وتوجهه إليه ... وهكذا.

وهذا الفعل (سمع) يتعدى بنفسه ليفيد معنى إدراك الأصوات ، ويتعدى بـ من ، وعن ، واللام ، وإلى ، والباء ؛ فيتسع لمعانٍ وأغراض تتلاقى، وتتباين طبقاً للحرف المتعدى به .

إن اللطائف التي تعرض للنظم بسبب الحروف هي التي جعلت المرادي وغيره ينبهون إلى خطر دراستها، والاحتياج إلى الصبر في التقاط شواردها، ولا أدل على ذلك مما رواه الخطَّابي عن مالك بن دينار لما سأل رجل أبا العالية عن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ما هذا السهو؟ قال: الذي لا يدري عن كم ينصرف، عن شفع أو عن وتر، فقال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس هذا، بل الذين سهوا عن صلاتهم، ويعلِّق الخطابي على ذلك بقوله:« قلت: وإنما أتى أبو العالية في هذا، حيث لم يفرق بين حرف(عن) وحرف (في)، فتنبه له الحسن، فال: ألا ترى إلى قوله: (عن صلاتهم) يؤيد أن السهو الذي هو الغلط في العدد إنما يعرض في الصلاة بعد ملابستها، فلو كان هو المراد لقيل الذي هم في صلاتهم ساهون، فلما قال عن صلاتهم دلَّ على أن المراد به الذهاب عن الوقت ... »[١٧]

وإن إهمال الفروق الدقيقة بين معاني الحروف، وما يترتب عليها من اختلاف دلالات

---

١٧) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٣

التراكيب، خاصة في نظم الكتاب العزيز أمرٌ خطير، قال الزمخشري: « فإن قلت: يجري لأجل مسمى ، وتجري إلى أجلٍ مسمى، أهو من تعاقب الحرفين ؟ قلت: كلا، ولا يسلك هذه الطريقة إلا بليد الطبع، ضيق العطن، ولكن المعنيان ؛ أعني: الانتهاء والاختصاص، كل واحدٍ منهما ملائم لصحة الغرض، لن قولك يجري إلى أجل مسمى معناه: يبلغه وينتهي إليه، وقولك : يجري لأجل مسمى تريد يجري لإدراك أجل مسمى .. » [٧]

إن لحروف الجر في النظم القرآني شأن عجيب، حيث تبادلت وأخواتها المواقع كثيراً، فإذا بـ(على) مكان (إلى)، و(عن) في موضع (الباء)، و(على) مكان (في) ... وهكذا. ومن لا يدرك أسرار القرآن قد يظن أنها جاءت في غير موقعها ، أو أن غيرها أولى منها؛ لأن إدراك الفروق بين هذه الحروف أمر ميسور حين يكون الفعل أو ما في معناه مما يتعدى بأكثر من حرف، لكن الأمر يزداد صعوبة، حين يتعدى الفعل بحرف ليس من شأنه أن يتعدى به . حينئذٍ تتباين الآراء، وتتعدد المذاهب في تفسير هذه المخالفة ، وأكثرها لا يُعنى بالوقوف على أسرار المخالفة ، واستجلاء أغراض النظم، بقدر ما يُعنى بإيجاد تبرير لهذا الخروج ، ولهذا ذهب جمهور كبير من النحاة متمثلاً في الكوفيين إلى أنه من باب نيابة الحروف بعضها عن بعض، وأما البصريون فقد رفضوا فكرة النيابة هذه، وقالوا بالتأول أو التضمين، والتضمين: هو أن يُشرَّب لفظ معنى لفظ آخر ، فيعطونه حكمه، وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدي كلمتين، بمعنى أن الفعل عندهم ملاحظ معه معنى فعل آخر، ومدلول عليه بالمخالفة في التعدي أو اللزوم، واللفظ مستعمل في معناه الحقيقي ومعنى ما تضمنه، والفائدة كما سبق إعطاء مجموع المعنيين .. والقول بالتضمين هو الذي راق للبلاغيين باعتباره أقرب وأقدر على إبراز مقاصد الكلام. ومع ذلك فإن الدراسات البلاغية ترفض أن يكون هناك تغيير في نظم الكلام، تُستبدل معه كلمة بأخرى لا يتبعه تغير في المقاصد والأغراض؛ لأن التضمين ليس إلا محاولة لتصحيح التعدي بحرف ليس من شأن الفعل التعدي به، وإلا فإنه في الحقيقة يصرف الهمم عن تدبر أسرار الحروف ، وما أحرانا أن نعتبره خروجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر علينا أن نبحث عن دواعيه وأغراضه! فهذا أجدى على الدراسات البيانية وأنفع[١٩].

فقد يجتمع الحسن حول حرف واحد ، فيثير في نفسك من الإيحاءات ما لا تجدها إذا استبدلت به حرفاً آخر.

التعبير بـ(على) دون (في):

قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الأنعام : آية (٣٩) ، وقال:

---

١٨) الكشاف : ٢٤/٣

١٩ ينظر: محمد الأمين الخضري (من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم صـ٧ – صـ٥٣)

﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾يس : آية (٣) ، وقال: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ النحل: آية (٧٦) وقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الملك : آية (٢٢) هذا في جانب الحق والهدى وطريق المؤمنين، أما في جانب الغي والضلال وطريق الكافرين ، فيؤثر التعبير بالحرف (في). قال تعالى:

﴿بَلْ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ و قال: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ❖ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ ﴿وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ ، ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدّدُونَ﴾ وغيرها من الآيات كثير ... فلم آثر (على) هناك و(في) هنا مع إنه بالإمكان في الظاهر أن نقول: فلان يسير في الطريق الصحيح أو هو في ا لطريق المستقيم .

والجواب:

أن ذلك ممكن في غير القرآن، أما في القرآن فلكل حرفٍ في مكانه معنى لا يؤديه غيره، ولا ينهض به إلا هو، وسر ذلك سرٌّ لطيف، وهو الإشعار بكون السالك لهذا الصراط المؤدي إلى الله عز وجل وإلى الفوز بالجنة والنعيم المقيم بالآخرة – الإشعار بكونه على الهدى وعلى الحق .

ولما في (على) من الدلالة على الاستعلاء، فإن اختيارها في جانب الحق يشعر باستعلاء صاحبها ، وعلو مقام المهتدين، يقول ابن القيم –رحمه الله – في ذلك: « فأن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) .. مقارنة بـ(في)، وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق، وعلى الهدى؟ قلت: لما فيه من استعلائه عن الضلال والريب، وعلو الحق والهدى مع ثباته عليه، واستقامته إليه، فكان في الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته، وهذا بخلاف الضلال والريب ؛ فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدالة على انغماس صاحبه، وانقماعه وتدسسه فيه . كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدّدُونَ ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ الأنعام : آية (٣٩) وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتّى حِينٍ ﴾المؤمنون : آية (٥٤)

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ سبأ : الآية (٢٤) . فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بصاحبها في أسفل سافلين " [٢٠]

يقول الزمخشري تعليقاً على هذه الآية: « فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد ، يُركضه كيف

٢٠ مدارج السالكين، ابن القيم: ١/٢٣- ٢٤

شاء، وصاحب الضلال كأنه منغمس في ظلام ،مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه » [٢١]

وتلك دقة وروعة قرآنية من حيث أشعرت (على) باستعلاء صاحب الحق لمزيد قوة أمره، وظهور حجته ، وفرط استظهاره كأنه راكب لجواد، يصرفه كيف شاء ، ويركض حيث أراد بخلاف صاحب الباطل فإنه لضلاله، وفرط جهله كأنه منغمس في ظلام مسجون في قفص هواه، وفي موضعٍ سافل، يتخبط في ظلام ، لا يدري أين يتوجه، ولا كيف يفعل.. [٢٢]

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ﴾ .حكاية عن فرعون معبرًا

عن غيظ بلغ مداه، وقورة غاضبة عاصفة، وهو يرى عرشه يهتز تحت قدميه بعد هزيمة من ظنهم سيقهرون خصمه، ويثبتون دعائم ملكه، وتحولهم من جند يدافعون عنه إلى عدو يحاربه ويناصرون خصمه، فأطلق هذه الكلمات منذراً بأقصى عقوبة، تنكيلاً بالسحرة وتمثيلاً بهم، ومعلناً أنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وهو القتل صبراً ثم يمثل بهم إعلاماً لغيرهم، وتهديداً لمن تسوِّل له نفسه أن يحذو حذوهم، وتعبيراً عن شدة الأخذ ،وعدم الرحمة بالمصلوب .. لقد جاء عرف الوعاء دالاً على أنهم سيُشدون إلى الجذع شداً بالغ القوة والقسوة، حتى ليكاد المصلوب يواريه الجذع ويشتمله، وذلك يتناغم مع صيغة التضعيف في الفعل (أُقَطِّعَنَّ) ، ويجسد لك حالة الغيظ التي تموج بها نفس فرعون ، وما أثاره الموقف في نفسه من هلع ، وكأنه يخشى تفلت هذا الجسد الميت، وروغانه من الجذع المصلوب فيه .

ومن دقيق ما جاء فيه حرف الظرفية مستجيبًا لدواعي النظم قوله تعالى : ﴿ ولا تمشِ في

الأرضِ مرحًا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ البال طولا ﴾ حيث المخاطب مغرور ، منتفخ الأوداج ، يضرب الأرض بقدميه اختيالا وكبرا ، لذا لم يكتفِ القرآن بنهيه عن المشي اختيالا وتكبرا ومعلوم إن المشي المعتاد لا يكون على غير الأرض ، فعد المشي إليها بـ (في) ؛ إشعارا بشدة ضربه في الأرض ، ومبالغته في وطئها شأن من يظن أنه قادر على خرقها ، وذلك يجسد لك إلى أي حد بلغ اغتراره بقوته ، وتمكنه من دنياه .

ثم قارني هذه الآية بقوله تعالى : ﴿عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ وكيف دل حرف الاستعلاء على تواضع المؤمنين ، وإقلاعهم عن الدنيا ، وزهدهم فيها ، وكيف يمشون برفق على هذه الأرض حتى لا تكاد تلمسها أقدامهم وكأنهم يمشون بين قوم نيام يخشون إيقاظهم .

(على) و (الباء) :

---

٢١ الكشاف : ٤٣/٣.

٢٢ ينظر : من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن)، د.عبد الفتاح لاشين: ١٠٠ ، من أسرار حروف الذكر الحكيم ، د.محمد الخضيري : ٦٤

قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ وقال لنوح عليه السلام بشأن صنع السفينة : ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ وبشأن جريانها : ﴿تجري بأعيننا ﴾ فما وجه البلاغة والبيان في إيثار كل حرف في موضعه ؟! والإحالة على المقام ، وسياق كل آية هو سبيلنا لإدراك مرامي النظم ؛ من حيث إن مقام الأولى يختلف عن الثانية ؛ فالآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيا ، إذ كان الأطفال في عهد فرعون ، وقبل ولادة موسى عليه السلام يغذون ويربون سرا ، فلما أراد موسى أن يربى موسى ويغذى في حال أمن وظهور عبر بـ (على) ؛ تبيهًا على هذا المعنى ؛ لأنها تدل على الاستعلاء ؛ والاستعلاء ظهور وإبداء ، فكأنه يقول –سبحانه - : ولتصنع حال أمنٍ ، لا تحت خوف ... وتأملي الدقة في اختيار لفظ العين في السياق ، وأنها قد أفادت تربيته مكلوءاً برعايته وحفظه ؛ لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة .

وأما قوله تعالى : ﴿ تجري بأعيننا﴾ و ﴿ اصنع الفلك بأعيننا﴾ فإنه إنما يريد برعاية منا وحفظ ، ولا يريد إبداء شيءٍ ولا إظهاره بعد كتمان .

وقد يتكرر الحرف بعينه في سورة بعينها لسرٍ بليغ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ❖ مَلِكِ النَّاسِ ❖ إِلَهِ النَّاسِ ❖ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ❖الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾سورة الناس.

فقد تكرر (السين) في السورة كما يلاحظ، فأما تكراره في كلمتي (الوسواس) و (يوسوس) فهو تابع لتكرار واقع الوسوسة في النفس؛ لأن أصل الوسوسة الحركة ، أو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه، والوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوتٍ خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت كما في وسوسة الشيطان للعبد.

ونعلم أن تكرار الصوت في الكلمة يؤدي إلى تكرار المعنى كزلزال ؛ لأن الزلزلة حركة متكررة، و (كبكبة وقلقلة) ونحوها، ومجيء الفعل على هذه الصورة مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني، هذا هو عين ما ذهب إليه ابن جني من أن تكرير عين الفعل دليلٌ على تكرير الفعل نفسه.[٢٣]

أما تكرار صوت السين في السورة بجميع آياتها فإن فيه لوناً من ألوان التصوير الصوتي لمعنى الوسوسة كما يلمح سيد قطب ؛ إذ يقول: " ونوعٌ آخر من تصوير الألفاظ بجرسها يبدو في سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ❖ مَلِكِ النَّاسِ ❖ إِلَهِ النَّاسِ ❖ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ❖الَّذِي

٢٣ ينظر: الخصائص : ١٥٣/٢- ١٥٦

يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النّاسِ ❖ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث وسوسة كاملة تناسب جو السورة ؛ جو وسوسة ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنّاسِ ﴾" [٢٤]

وقد ساعد في ذلك ما في صوت السين من صفة الهمس والصفير التي تناسب صفة الهمس والوسوسة، وما يلقيه الموسوس في نفس الموسوس له بخفاء.

وقد يؤتى في الوصف بحرفٍ قد يُظن أنه لا حاجة إليه في غير القرآن، لكنه ينهض في القرآن بأداء معنى لا يتحقق بدونه كما في التاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ ﴾ الحج : آية (١) وسيأتي تفصيله بعد قليل.

ومن حروف القرآن حروفٌ حار العلماء في سرها، وإن كانت لم تنظم في سلك آياته ، ولكنها جاءت جزء من الإعجاز، بل هي أدل شيء على إعجازه.. هذه الحروف هي :

الحروف المقطعة في أوائل السور :

فما هي الأسرار البلاغية الكامنة وراء افتتاح بعض السور بها؟!

لقد وردت هذه الحروف في أوائل سور كثيرة من القرآن بلغت تسعاً وعشرين سورة نحو: آلم ، آلمص ، آلر، كهيعص ، عسق، ص، ق ... وقد اختلف المفسرون في تأويلها، والسر في ابتداء السور بها اختلافاً يعكس عجز البشر عن الإحاطة بأسرار الإعجاز القرآني

وأقرب الأقوال في تأويلها أنها مما استأثر الله بعلمه، وإن كان الذي تطمئن إليه النفس أنه لا معنى لها، ذلك أن القرآن نزل بلغة العرب ، وليس لـ ﴿آلم﴾ معنى في لغة العرب.. هذا أصح مما قيل في معناها. أما ما قيل من أنها أسماء لله تعالى، أو هي أسماء للسور أو القرآن، أو لحساب أبي جاد .. فكلها أقوال ضعيفة لا يلتفت إليها ، لبعدها عن مسألة الإعجاز.

أما من جهة الأسرار البلاغية والفوائد والحكم التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور فقيل بأن الحكمة من افتتاح السور بها أن تكون:" بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره، وقرره الزمخشري « في كشافه، ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية . قال الزمخشري: " ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ، أبلغ في التحدي والتبكيت كما كُرِرت قصصٌ كثيرة، وكرر التحدي بالصريح في أماكن ».. ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلابد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه

٢٤ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب: ٩٤

وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء. والذي يؤكد هذا المعنى أن جميع السور المفتتحة بهذه الحروف هي سورٌ مكية ماعدا ثلاث سور، والجو الذي نزلت فيه تلك السور هو جو التحدي بالقرآن: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ الطور : آية (٣٤) ، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ هود : آية (١٣)، ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ البقرة : آية (٢٣) في وقت اشتد جدل المكذبين بنبوة محمدﷺ ،واشتد التكذيب بمعجزته (القرآن).

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن: « إن مجيء الحرف (ن) في سورة القلم المكية المبكرة فيه لفت واضح إلى سر الحرف في البيان المعجز؛ لأن السورة جدلاً من المشركين في نبوة المصطفى ﷺ وجحدًا لمعجزته، وقولاً بأنها من أساطير الأولين، فكأن هذا تمهيداً للتحدي بأن يأتوا بمثله، واستدراجهم لتلزمهم الحجة، فإن كلماته من الحروف التي عرفوها في عربيتهم .. » (١٤)

❖ ❖ ❖

الكلمة في القرآن :

مرض ومرضعة ، حامل وذات حمل :

وهاتان اللفظتان أشد ما تكون تقارباً وتشابهاً، ولكن لماذا آثر النظم القرآني أن يعبر بـ(مرضعة) دون مرضع ؟ على الرغم من أن لفظة(مرضع) – من دون التاء- وكما هو معلوم والأصل في لغة العرب أنها وصف خاص بالمرأة، ولا يكون للرجل، ولهذا لا تدخل التاء عليها كـ(حائض)، و(طامث)، و(طالق) حيث لا لبس فيه ، إذ لا يُقال: رجلٌ مرضع ، وامرأة مرضعة، وإنما يُقال: امرأة مرضع، وكذلك لا يُقال: رجل حامل ، وامرأة حاملة، وإنما يُقال: امرأة حامل.

إذن ما السر في اختيار (مرضعة) و(ذات حمل) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ❖ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج: الآيتان (١-٢) مادامت مرضع تؤدي المعنى وكذلك حامل ؟

الجواب: أن الآية سيقت للدلالة على شدة هول يوم القيامة ومدى الفزع الذي يصيب الناس عند وقوع الساعة وأهوالها، وهذا الاختيار أدق في الدلالة على الهول من غيره؛ ذلك أن المرضع هي من لها ولد ترضعه سواء كانت قد باشرت الإرضاع أم لا،أمَّا المرضعة فهي التي تفعل الرَضَاع ، لا الوصف المجرد بكونها من أهل الرضاع، فإذا ذهلت المرضع عن ولدها البعيد عنها ، فهذا مقبول عقلاً، أما التي تذهل عن رضيعها وهو بين يديها وفي حجرها ، فلا تذهل عنه إلا لأمر عظيم ،

وهولٍ شديد، وهذا ما أراده القرآن: وهو تأكيد عظمة الفزع الذي يصيب الناس ، وأدل شيء عليه فزع هذه الأم وذهولها عن رضيعها.

يقول الزمخشري: « فإن قلت: لِمَ قيل: (مرضعة) دون (مرضع)؟ قلت: المرضعة هي حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع التي شأنها أن ترضع، وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل مرضعة؛ ليدل على أنَّ ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه، لما يلحقها من الدهشة »[١٥]. واختيار (مرضعة) عند أبي هلال العسكري من المبالغة؛ لأن المرضعة أشفق على ولدها ؛ لمعرفتها بحاجته إليها، وأشغف به ؛ لقربها منه ، ولزومها له ؛ لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً. [١٦]

أما عن السر في عدوله سبحانه عن (حامل) إلى (ذات حمل) فهو: أن الحامل في أول حملها قد تطلق على المهيأة للحمل، أو على من هي في أول حملها، والحامل في أول حملها قد تسقط الحمل عند الفزع أو الخوف الشديد.. هذا أمر لا يجادل فيه اثنان ، أما أن تسقط حملها ، أو تضعه وقد بدا وظهر ، وأوشكت على الولادة عند الفزع؛ فإن ذلك يدل على شدة الفرع الذي رأته ، أو تعرضت له ولاشك. وهذا أيضاً ما أراده الله عز وجل من سياق هذه الآية.

(نورهم) دون (ضوئهم):

وهذا من عجيب النظم، وجمال تعبيرفي قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ البقرة : آية ١٥، ولم يقل: بضوئهم مع أن فيه تشاكلا وتجانسًا مع قوله : (فَلَمَّا أَضَاءتْ)؟!

السبب في ذلك أن لفظ (نورهم) أبلغ في نفي النور عنهم؛ من حيث أن الضوء فيه دلالة على النور وزيادة، والنور هو أصله ومنشؤه، ولو قال: (ذهب الله بضوئهم) لكان المعنى على ذهاب تلك الزيادة، وبقاء أصل الضوء وهو النور، ولهذا كان الذهاب بالنور أبلغ في النفي عنهم؛ لأن الغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً، ألا ترى كيف ذكر عقيبه : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ البقرة : آية ١٥، والمراد من (النور) في الآية نور الإيمان الذي أشرق في صدورهم.

(نورهم) دون (نارهم):

وهنا تظهر فائدة أخرى لذكر النور دون النار؛ لأنه لو قال (بنارهم) لما دل على نور الإيمان؛ لأن المعنى على تشبيه حال أولئك المنافقين بقوم استوقدوا ناراً ، والحالة المشبهة هي حال أولئك المنافقين الذين استناروا بنور الإيمان، ثم عادوا إلى ظلمة الشك والكفر، وأما الحالة المشبهة بها فهي حال القوم الذين استوقدوا النار ، ثم أطفئت عنهم، وبذلك كان اختيار لفظ (النور) أنسب كما يقول

بعض المفسرين، لأن الذي يشبه النار من أحوالهم الإسلام الذي كانوا يظهرونه، وقد شاع التعبير عن الإسلام بالنور في القرآن، فكان اختيار لفظ (نورهم) بمنزلة تجريد الاستعارة ؛ لأنه أنسب بالحالة المشبهة (حال المنافقين) الذي حرموا الانتفاع بما جاء من عند الله مما سمّاه سبحانه (نوراً) في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ المائدة : آية (١٥) ولو أنه قال (نارهم) لما دل على ذهاب هذا النور. وفيه لطيفة أخرى ، وهي أن النار فيها الإشراق والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإشراق، وهو النور الذي هو أعظم منافعها، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق والنارية. [٢٥]

وكذلك حال المنافقين: ذهب نور إيمانهم بالنفاق، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات والخوف [٢٦]

هذا من حيث مادة الكلمة ، أما من حيث صيغتها ، ونعني بها الوزن الصرفي ، ومن حيث الإفراد والتثنيه والجمع وغيرها ... ففي القرآن أسرار بديعة في اختيار الكلمة تبعاً لصيغتها ، ومن ذلك على سبيل المثال :

صيغ الأفعال:

(كسبت) و(اكتسبت):

قال تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي لها ما كسبت من الحسنات، وعليها ما اكتسبت من السيئات، فلماذا عبَّر عن الفعل في جانب الحسنات بـ(كسبت) وفي جانب السيئات بـ(اكتسبت) مع إن المعنى واحد تقريباً؟

والجواب: إن كلاً من هاتين الصيغتين (فعل) و(افتعل) قد استعملتا في مكانهما المناسب من نظم الآية استناداً إلى القاعدة اللغوية التي تقول: إن زيادة المبني فيه دلالة على زيادة المعنى، وهو كذلك في الآية فقد زيدت التاء في الفعل الثاني ، للدلالة على أن الذنوب يوصل إليها بواسطة الشهوة والشيطان والهوى، ولأن اكتسابها يستدعي التحمل والمحاولة والمعاناة.. ولهذا فإنه لا يحاسب العبد ، ولا يجعل عليه من وزر المعصية إلا ما كان من هذا القبيل الحاصل بسعيه، ومعاناته وتحمله.

وأما الكسب للحسنة ، فإنه يُنال بهبة الله من غير واسطة شهوة ، ولا إغراء عدو، بل قد تحصل بأدنى ملابسة كالهمّ بالحسنة، ولأن الخير دائماً هو طبيعة النفس السوية إلا إذا خرجت عن طبيعتها.!! وقد صحَّ في الحديث الشريف: « ... قال الله عزل وجل إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم عبدي بحسنة ، فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها

---

٢٥ ينظر: بدائع التفسير : ١/١٨٠

٢٦ ينظر : تفسير أبي السعود : ١/٥٠ ، التحرير والتنوير: ١/٣٠٩

فاكتبوها عشراً »[٢٧].

لقد طلب المولى من الملائكة سرعة كتابتها وتسجيلها للعبد ، بخلاف السيئة ، فإنها لما كانت تحصل بمعاناة ومشقة، ومجاذبات بين دواعي الفطرة وهوى النفس ونزغات الشيطان ، وتسلط الهوى والشهوة فقد نهى الملائكة عن كتابتها عند الهم بها.

أبنية المشتقات

(مستنفرة) دون (نافرة):

قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ❖ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ❖ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ المدثر: الآيات : (٤٩-٥١)

لقد اختار القرآن التعبير عن نفور الحُمُرِ الوحشية التي اشبهت هؤلاء الكفار في حال إعراضهم عن القرآن بقوله (مستنفرة)، مع أن (نافرة) يمكن أن تدل على النفور نفسه.

ولكن ذلك ممكن في غير القرآن ؛ ذلك أن (مستنفرة) أبلغ من (نافرة) في أداء المقصود من نظم الآية، فالآية سيقت للدلالة على شدة نفور هؤلاء من القرآن والتذكرة به، والصيغة الأولى أدق في الدلالة على هذا المعنى. ولو تساءلنا كيف ذلك؟

لكان الجواب: إن الحُمُر هي : الحمر الوحشية التي تفر من كل اتجاه حين تسمع زئير الأسد، أو تحس بالخوف، وقد كثر في شعر العرب في الجاهلية والإسلام وصف النفرة ،وسرعة السير ، والهرب بالحُمُر الوحشية إذا أحست بالخطر، وذلك أنها حين تفر خوفًا فإنها تفر في كل اتجاه، ولا تتخذ اتجاهاً واحداً عند فرارها، وهو مشهد عنيف الحركة كما نرى "[٢٨]، لا يمكن أن تؤديه صيغة (نافرة)، وذلك لما في صيغة الاستفعال (الاستنفار) من الدلالة على القدر الزائد على المعنى المجرد (النفور)؛ فهي لشدة خوفها كأنها استنفرت بعضها بعضًا ، وحضته على النفور، فهي نافرة نفاراً قوياً، تعدو بأقصى سرعة كأنها تواصت بالنفور ، وتواطأت عليه[٢٩]. وكذلك حال الكفار كأن التذكرة التي سمعوها كانت بمثابة (قسورة) دعاهم إلى النفير ، فاستنفروا بأشد ما يكون النفير والاستنفار.

الإفراد والجمع:

السماوات والأرض :

---

٢٧ أرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس: ١١٧/١

٢٨ ينظر : التحرير والتنوير: ٣٣٠/٢٩ ؛ في ظلال القرآن، سيد قطب : ٣٧٦٢/٦

٢٩ ينظر: بدائع التفسير، ابن القيم : ٢٠٤/٥

يقول الرافعي : « ومما يدل على نظم القرآن مادة فوق الصنعة ، ومن وراء الفكر ، وكأنها صبت على الجملة صبا . أنك ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلا مجموعاً ولم يستعمل منه صيغة المفرد ، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها ، كلفظة (اللب) ؛ فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله تعالى : ﴿إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾ وقوله:﴿وليذكر أولو الألباب﴾ ونحوهما ، ولم تجيء فيه مفردة ، بل جاء مكانها (القلب) ... وعكس ذلك لفظ (الأرض) فإنها لم ترد فيه إلا مفردة ؛ فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه ، ولما احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها حتى خرجت من الروعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة ، وهي في قوله : ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾ ولم يقل : (وسبع أراضين) ؛ لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ، ويختل بها النظم اختلالا ... »[٣٠]

فلهذا الثقل المشاهد في جمع الأرض – سواء جعت على أرضين أو آرض أو آراض - تفادى القرآن جمعها ، وإذا أراده دل عليه بثلاثة ألفاظ كما في قوله : ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ كما أن الأرض لم تأت في القرآن إلا بمعنى السفل والتحت ؛ تنبيهًا من الله تعالى على ذمها ، وإعراضاً عن ذكرها فهي دار الدنيا التي هي بالإضافة إلى الآخرة شيء قليل ..... أما السماوات فهي مقر ملائكته ، ومحل جزاءه كما أن المقصود بها في الغالب التعدد لأنها عوالم كثيرة كل كوكب منها عالم مستقل عن غيره ؛ لذلك تجمع ...[٣١]

ولا تفرد إلا إذا قصد بها الوصف المطلق للسماء بالعلو والارتفاع ، أو قصد منها الجهة ، كقوله تعالى : ﴿ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أفرد السماء لما كان المراد منها الوصف الشامل والفوقية وليس سماءاً معينة ، وقوله : ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ أفردت لأن المقصود بها جهة الرزق ، سواء المطر أو الجنة ، وإذا كان المقصود ذوات السماء وأعدادها الكثيرة جمعت كما سبق .

الظلمات والنور :

تجمع (الظلمات) في القرآن، وتفرد كلمة (النور) وكذلك سبل الباطل وسبل الحق، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ وقال: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ . فما السر البلاغي وراء هذا الإفراد والجمع؟! والجواب: يخرج من مشكاة واحدة، وهو أن طريق الحق واحد مرده إلى الله الملك الحق،

---

٣٠ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .. ص٢١٤

٣١ ينظر التحرير والتنوير .. ١٢٦/٧

وطرق الباطل متعددة ومتشعبة؛ فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها يوصل إليها، بل هي بمنزلة بُنيات الطريق، أما طريق الحق فهي وإن تنوعت أصلها واحد. ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ❖ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾ فليس المقصود عددها ، وإنما هي بمثابة الروافد التي تصب في مجرى واحد ، ونهر واحد يجمعها كما يجمع ساقُ الشجرة أغصانَها وشعَبها.

وماعدا ذلك فتقرأ سبيل الحق مفرداً، وتجد طرق الباطل وسبله مجموعة، ومنه حديث المصطفى ﷺ حين خط خطاً، وقال: هذه سبيل الله، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه، ويساره، وقال: هذه سبل وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ قوله تعالى: (وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا) . ولاحظ كيف وحد (ولي) الذين آمنوا ، فقال (أولياؤهم) وجمع ولي الذين كفروا فقال (أولياءهم)؛ لأن الله ولي الذين آمنوا وهو الواحد الأحد سبحانه، وجمع أولياء الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم في قولة تعالى : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ .

التعريف والتنكير:

" النكرة تفيد معناها مطلقاً من كل قيد، أما ما يذكره البلاغيون من معانٍ استفيدت من النكرة فإنها لم تفدها بطبيعتها، وإنما استفادتها من المقام الذي وردت فيه، فكأنما المقام هو الذي يصف النكرة ويحدد معناها، فكلمة (حياة) مثلاً تدل على معناها المجرد، والمقام يهبها معنى التحقير حيناً، والتعظيم حيناً آخر، والنوعية في موضع ثالث.." [٣٢] والمثال على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾ البقرة : آية (٩٦). والمقصود بهم هنا اليهود، والمراد أنهم حريصون على مطلق الحياة وأنها غالية عندهم غلاء عظيماً، لا يعنيهم أن تكون تلك الحياة رفيعة أو وضيعة، لهذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ومن هنا جاء التنديد بهم – كما يقول د.أحمد بدوي- لأن الإنسان المثالي لا يريد الحياة إلا إذا كانت رفيعة صالحة. [٣٣]

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة : آية (١٧٩) وهنا نجد المراد تعظيم الحياة التي يستفيدها المجتمع من حكم القصاص ، تلك التي يظفر بها أفراد المجتمع حينما يرتدع عن القاتل، ولا يقدم عليه خوفاً أن تناله يد القانون، فيقتل، فهذا

٣٢ من بلاغة القرآن: د. أحمد بدوي : ١٢٨

٣٣ من بلاغة القرآن : ١٢٨

الحكم العادل استزاد به المجتمع حياة عظيمة .

وتستخدم ألوان المعارف في القرآن الكريم في مواضعها الدقيقة الجديرة بها وهي: الضمائر، العلم، المعرف بأل، اسم الإشارة، الاسم الموصول، المعرف بالإضافة.

فأحياناً يؤثر النظم التعبير بالإضافة، ويفضل هذا اللون من ألوان التعريف دون العلم الذي هو أعرف المعارف بعد الضمير لسر بلاغي ، كما في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ دون التصريح باسمه (محمد) وإنما دل عليه بلفظ المصاحبة لهم ، للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبراً ببراءته من كل سوء، فإن طول مصاحبتهم له ﷺ ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً .

يقول ابن القيم: «وتأمل كيف قال سبحانه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ دون (ما ضل محمد)؛ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به، وبحاله، وأقواله، وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط » [٣٤]

ويقول صاحب التحرير والتنوير: « وإيثار التعبير عنه بوصف (صاحبكم) تعريضُ بأنهم أهل بهتان؛ إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة إطلاعهم على أحواله وشؤونه » [٣٥]

وقد نبه القرآن على المعنى أيضاً في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) وقد يفيد التعريف بالإضافة معنى تشريف المضاف وتعظيمه ، ورفع شأنه، نجد ذلك واضحاً في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ شرَّفه أولاً بلفظ العبودية، لأنها أشرف المقامات عند الله عز وجل، وشرَّفه ثانياً بالإضافة إليه سبحانه؛ لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه، ومنها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ وقوله: (هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ) يقول الزمخشري: « إن الناقة أضيفت إلى اسم الله تعظيماً وتضخيماً لشأنها، وأنها جاءت من عنده مكونة من غير فحل، آية من آياته كما تقول آية الله ». وذكر المعنى ابن الأثير في مثل قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللّهِ﴾ و ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ و ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾.

ولما لم يحتج السياق أو المقام لهذا التشريف والتعظيم ترك التعريف بالإضافة إلى الله تعالى ، بل

---

٣٤ التبيان في أقسام القرآن: ١٥٤ ، بدائع التفسير:٤/ ؛ ينظر هذا المعنى في تفسير أبي السعود ١٩٣/٩ ؛ روح المعاني:٤٥/٢٧

٣٥ الطاهر بن عاشور : ٩٢/٢٧

عرفه باسمه العلم المجرد (محمد) ؛للدلالة على بشريته كما في قوله : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ باسمه الذي وسم به بين الناس، وكذا قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾..

رب الفلق :

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ حيث اختار الله أن يضيف لفظ (الرب) إلى (الفلق) والله ربُّ كل شيء ومليكه، فلماذا الفلق بالذات ؟

إن الربوبية قد جاءت في هذه السورة مضافة إلى الفلق لمناسبة نلمحها بين ما وصف الله به نفسه فيها، وبين لاستعاذة المطلوبة بحيث يقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة.

وحتى نكشف لطائف هذه الإضافة نبين السبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الخلق، وشر الليل، وشر القمر إذا طلع، وشر السواحر، وشر الحاسد إذا حسد.

والسبب هو أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين، لنه قد جاء في الحديث الصحيح أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين، وهو محل الظلام الذي تتسلط فيه شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين سلطانهم في الظلمات، ولهذا كان سلطان السحر يقوى ويعظم تأثيره بالليل، والسحر الليلي عندهم هو السحر القوي " ومن هنا يُعلم السر في الاستعاذة بـ (رب الفلق) في هذا الموضع، فإن (الفلق) هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام ، وعسكر المفسدين، فيأوي كل خبيث، وكل مفسد، وكل لص، وكل قاطع طريق، وتأوي الهوام، والشياطين إلى أمكنتها، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجيشها" [٣٦]

والمعنى: أعوذُ بفالق الصبح من شرور الليل، وبهذا تظهر ملاءمتها للسياق ، وأنها تضمنت الإيثار بعظمة المستعاذ به، وقدرته العظيمة على قهر تلك الشرور الليلة، وإذلالها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ❖ مَلِكِ النَّاسِ ❖ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فلقد تضمنت الإشعار بعظمة الله أيضاً؛ لأن الآيات سيقت في بيان أعدى الأعداء، وأشدهم حزراً على بني الإنسان، وهم الموسوسون لنبي آدم الذين يلقون في أنفسهم خطرات السوء من حيث لا يشعرون بهم، أو لا يشعرون بسوئهم فناسب أن يستعاذ برب الناس، بل ملك الناس، وإله الناس؛ لتشعر بضآلة شرورهم سواء الجن، أم الإنس.

---

٣٦ بدائع الفوائد : ٢/٢١٨- ٢١٩ ؛ بدائع التفسير : ٤/ ٣٢١

ولو تأملنا هذه المضافات الثلاثة: الرب، والملك، والإله، وجدناها محيطة بكل شيء للمخلوقين: فهو مربيهم، وهو مالكهم، وهو إلههم، وهكذا لم يبق للوسواس الخناس شيء يفعله مع هؤلاء المخلوقين.

كما أن فيها التأكيد على أن مضرة الدين من آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا مهما بلغت، فاحتاجت هذه الإضافات المشعرة بعظمة المستعاذ به، وإحاطته بالموسوس بهم، وإنهم في كنفه، وتحت حمايته من هذا الخناس.[٣٧]

من أسرار الحذف :

والحذف شجاعة العربية – كما سماه ابن جني - ، وذلك لما وراءه من أسرار ومزايا لا يدركها ، ولا يحيط بدروبها إلاَّ الخبير بأساليب الكلام ، البصير بطرق القول ، فالمتكلم يطوي جزءًا من أجزاء الكلام ، ولا يختل المهنى بهذا الطي ، بل يزداد حسنًا ، وتكثر فوائده .

وقد درسنا فيما مضى اللطائف البيانية المتعلقة بحذف المفعول به ، لهذا سنقف مع بعض أسرار (حذف الفاعل) ، و(حذف المتعلق)في البيان المعجز .

❖ ❖ ❖

حذف الفاعل :

أما الفاعل فإنَّ هناك قاعدة مطردة في حذفه في القرآن ، وهي كثرة حذفه في مقامات الذم كما في قوله تعالى : ﴿وإنَّ الذين أُرِثُوا الكِتَابَ من بعْدِهم لَفِي شَكٍ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ في حين ذكر الفاعل لما كان السياق سياق ذكر النعم والآلاء والامتنان . قال تعالى : ﴿وأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ . . . ﴾

ويحذف في مقامات الغضب والانتقام والتحقير كما في قوله تعالى : ﴿ غير المغْضُوبِ عَلَيهِم ﴾ فقد حُذف فاعل الغضب ، فصار فيه من تصغير شأن المغضوب عليهم ، وهم اليهود ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليهم والإشادة بذكرهم .

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن : ﴿ وأَنَّا لا نَّدْرِي أَشَرٌ أُرِيدَ بِمَن في الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِم رَبُّهُم رَشَدًا ﴾ فحذف فاعل الشر ومريده على لسانهم ، وصرَّح بمريد الرشد .

حذف المتعلق :

---

٣٧ ينظر: بدائع التفسير، ابن القيم : ٤٦٧/١

ويحذف للتعميم كما في قوله تعالى : ﴿أَلْهاكُم التَّكَاثُر . حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِر﴾حُذف متعلق ألهاكم ، وهو المُلهى عنه ، ومتعلق التكاثر ، وهو المتكاثر به ، وكلاهما جار ومجرور . والمعنى : ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد عن الطاعة ، وعبادة الله وذكره إلى أن جاءكم الموت . فأفاد هذا الحذف عموم هذه المعاني وغيرها ..

ومما يحذف في القرآن كثيرًا ، ويكون حذفه عين البلاغة ، وتاج حسنها (جواب لو) إذا قُصد به التعظيم والتهويل كما في قوله تعالى : ﴿ولَو تَرَى إِذْ يَتَوفَّى الَّذِينَ كفَرُوا الْمَلائكَةُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَو تَرَى إِذْ فُزِعُوا فلَا فَوْت﴾ والتقدير : لرأيت أمرًا عظيمًا جليلاً ، أو هولاً عظيماً ، ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام ؛ فليس في ذكر الجواب زيادة على ما دلَّ عليه الشرط . وهو جارٍ على عادة العرب في كلامهم إذا ما رأوا أمورًا عجيبة وعظيمة ، وأرادوا أن يخبروا بها الغائب يقولون : لو رأيت ما جرى اليوم ؟! يريدون لرأيت أمرًا عظيماً .

التقديم والتأخير:

والبصر بهذا الأسلوب في القرآن، والإحاطة بأسراره عظيم جداً؛ لما وراءه من مزايا، وملاحظات بلاغية؛ « لأن الآية القرآنية قد جاءت في بنائها على نمط خاص، اهتمت فيه بأن لا يتقدم جزء من أجزائها إلا وتقديمه مشيرٌ إلى مغزى، دالٌ على هدف » فتغيير بناء الجملة بتقديم كلمة فيها لا يكون إلا لتحقيق غرض ، والدلالة على معنى.

وقد قرَّر عبد القاهر أن العناية والاهتمام أصل في كل تقديم، ولكن لابد من البحث عما وراء ذلك الاهتمام وتلك العناية، فتنطلق إلى معانٍ أُخر تُستشف من المقام والسياق.

والتقديم والتأخير نوعان:

أ- تقديم على نية التأخير، وهو الحاصل في ذلك النوع من النظم الذي يحكم ترتيب ألفاظه مناهج النحو، فكان تقديم اللفظة مغيراً لدلالة الجملة كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث تقدم المعبود والمستعان (المفعول) على الفعلين، ومن أسراره البلاغية :

١- أدبهم مع الله تعلى بتقديم اسمه على فعلهم.

٢- وفيه الاهتمام وشدة العناية. فالله سبحانه موضع عناية العابد ورجاء المستقيم فلا غرو وهو مناط الاهتمام أن يتقدم.

٣- وفيه الإيذان بالاختصاص والحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه بها ، وإن قلل بعض البلاغيين من هذا المعنى .

ب - والنوع الآخر من التقديم الذي يقع بين الألفاظ المرتبطة ارتباطاً عطفياً ، أو معنوياً مما تقديمها أو تأخيرها لا يُعد تغييراً في بناء الجملة وتركيبها.

وقد تقدمت بعض الألفاظ على بعض في القرآن بشكل شبه مطرد ، ومن ذلك تقديم الجن على الإنس للفضل والشرف، وكذلك السميع على البصير، والسماوات والأرض، والمال على البنون وإن تخلَّف فلغرض بلاغي يناسب سياق الآيات ومقامها.

تقديم إبراهيم على إسماعيل في الذكر:

خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ تجد إسماعيل معطوفاً على إبراهيم فهو كإبراهيم يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر يوحي بأن دوره في رفع القواعد دورٌ ثانوي، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم: فقد قيل إن إبراهيم كان يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، فنزلت الآية وكأنما كانت ستنسى دور إسماعيل لثانويته.

السمع والبصير :

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وقال : ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ وقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾ إلى آخر الآيات الكثيرة التي جاء السمع مقدماً فيها على البصر في شأن الخلق، والقاعدة التي انتهى إليها العلماء بعد طول البحث والنظر أنه بالنسبة للخلق والعباد ' وفي مقام ذكر حواسهم والاستفادة بها، وفيما يُوحي إليهم من الرسالات، وفي مقام الامتنان من الله على عباده بذلك... يتقدم السمع على البصر؛ وذلك لأن الوليد يكتمل تمييز بسمعه قبل بصره، ولأن المسموعات من جميع الجهات، والمرئيات من جهة واحدة، ولأن الانتفاع بالسمع في مقام الهدايات والنبوات أكثر، لا يكاد يتخلف ؛ فيأتي البصر قبل السمع إلا لملحظ بلاغي ولطائف بيانية.

وهكذا تمضي الجملة القرآنية، وقد كونت من كلمات قد اختيرت، ثُم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف ، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق ودقة ترتيب.[٣٨]

والشأن نفسه في القصد والتوكيد ، وفي الأساليب الإنشائية والخبرية ، والوصل والفصل ، وفي النظر إلى التشبيهات والأمثال والاستعارات القرآنية. وكذا دراسة ألوان البديع في الذكر الحكيم..

وما توقفنا عنده ليس إلا قطرة من بحر، وغيض من فيض مما يمكن أن يُقال في البلاغة المعجزة،أو يستنبط من أسرارها وكنوزها العظيمة ....!

[٣٨] من بلاغة القرآن، د. احمد بدوي : ١٠٥ -١٠٦

❖ **تطبيق : قصة إبراهيم عليه السلام مع الملائكة :**

يؤكد ابن القيم أن من أراد أن إدراك أسرار القرآن لا يتأتى إلاَّ لمن داوم التفكر والتدبر لآيات الله ؛ حيث تستولي على الفكر، وتشغل القلب ؛ وأن معاني القرآن إذا صارت مكان الخواطر من قلبه ، تفتح له من ذلك باب عظيم ، ويستشهد بقصة إبراهيم والملائكة على ما يقول ، ونصه :

« **فإن قلت**: إنك قد أشرت إلى مقام عظيم فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبر القرآن وتفهمه ، والإشراف على عجائبه وكنوزه ؟ **قلت**: سأضرب لك أمثالاً تجعلها إماماً لك في هذا المقصد، قال الله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ

قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية ، وتطلعت إلى معناها وتدبرتها ، فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون ، وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك ، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك. ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك ..!

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار، وكم قد تضمنت من الثناء على إبراهيم، وكيف جمعت الضيافة وحقوقها ، وما تضمنت من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة وكيف تضمنت علما عظيماً من أعلام النبوة ، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردها إلى العلم والحكمة ....

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة: قال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، و في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف ، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له صدَّر له الكلام بأداة الاستفهام ، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بـ (**ألا**)، وتارة يصدره بـ (**هل**)، فتقول : هل علمت ما كان من كيت وكيت ؟ إما مذكرا به، وإما واعظاً له مخوفا، وإما منبها على عظمه ما يخبر به، وإما مقرراً له، فقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ و﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ **متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفتها ما تضمنته** . وفيه أمر آخر. وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام

النبوة ؛ فانه من الغيب الذي لا تعمله أنت ولا قومك ، فهل أتاك من غير أعلامنا وإرسالنا وتعريفنا ؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا ؟ فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.» [1]

وأتركك مع ابن القيم وبيان كيف فاضت هذه الآيات القلائل بعظيم المعاني ، وكيف جمعت آداب الضيافة مع قصرها ، يقول في التعليق على هذه الآيات في جلاء الأفهام :

« في هذا ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة :

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون، وهذا على أحد القولين أنه إكرام إبراهيم ، والثاني: أنهم المكرمون عند الله ، ولا تنافي بين القولين ؛ فالآية تدل على المعنيين .

الثاني: قول تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ فلم يذكر استئذانهم ففي هذا دليل على أنه عليه السلام كان معروفاً بإكرام الضيفان، فمنزله مطروق لمن ورده ، لا يحتاج إلى الاستئذان .. وهذا غاية ما يكون من الكرم !

الثالث : قوله: (سلامٌ) بالرفع ، وهم سلموا عليه بالنصب ﴿فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ ﴾ والسلام بالرفع أكمل؛ لأنه يدل عل الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام ، والمنصوب يدل على الجملة الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم ؛ فإن قولهم (سَلاماً) يدل على سلمنا سلاماً ، وقوله (سلامٌ) أي: سلام دائمٌ عليكم .

الرابع : أنه حذف المبتدأ من قوله: (قومٌ منكرون) وهو من ألطف في الكلام. فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم عن مواجهتهم بلفظٍ ينفر الضيف لو قال : أنتم قومٌ منكرون أو إني أنكرتكم.

الخامس: أنه بني الفعل للمفعول وحذف فاعله ، فقال: (منكرون) ولم يقل: إني أنكركم وهو أحسن في هذا المقام ، وأبعد عن التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس : أنه راغ إلى أهله ليجيئهم بالنزل وهي الكرامة، والروغان هو: الذهاب باختفاء، بحيث لا يشعر به الضيف وهذا من كرم رب المنزل - المضيف- أن يذهب باختفاء حتى لا يشق على الضيف ويستحي، فلا يشعر الضيف إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه ويقول لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، فحفظ مشاعر الضيف من إكرامه.

السابع : أن إبراهيم ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، وذلك معناه أنه كان بيته مستعداً للإكرام ولم يذهب إلى السوق ليشتري أو يذهب إلى الجيران ليستعير أو ويقترض .

﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ من الذي جاء ؟ هو الذي جاء بالعجل بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم بعجلٍ سمين بل هو الذي ذهب ، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

الثامن: أنه جاء بعجلٍ كامل ولم يأت ببعض منه، وهذا من تمام كرمه، فلم يأت بفخذ أو بكتف

---

[1]) الرسالة التبوكية : ص ٧٥- ٨٠

أوبظهر بل بعجل كامل، وهو البقر الصغير ولحمه من أطيب اللحوم، وليس بقراً غليظاً.

التاسع : أنه سمين وليس بهزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أمواله، وهذا إكرام متناهي؛ لأن العجل الصغير عادة يتخذ للاعتناء والتربية ولكنه آثر به ضيفانه وجاءهم بهذا الصغير ذي اللحم الطري لأجل إكرامهم.

عاشراً: أنه قربه بنفسه ولم يقل للخدم قربوه أنتم ، وإنما قربه هو ولم يأمر خادمه بذلك.

الحادي عشر: وقوله (إليهم) متضمن المدح وآداباً أخرى ، وهو إحضار الطعام بين يدي الضيف، بخلاف من يهيئ الطعام في موضع ثم يقيم ضيفه ليورده عليه .لقد قربه إليهم ولم يقربهم إليه، وهذا أبلغ في الكرامة .

الثاني عشر: قوله ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فيه مدح وآداب أخر، فإنه عرض عليهم الأكل بقوله : ﴿ أَلَا تأكلون﴾ وهذه صيغة عرض مؤذنة بالتلطف بخلاف من يقول : ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو هذا.

الثالث عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل ؛ لأنه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون إلى إذن؛ لأن مجرد تقديم الطعام للضيف هو إذن بأكله ، لكن لما رأى أنهم لا يأكلون قال: ألا تأكلون؟ ولهذا أوجس منهم خيفة وأحسها.

الرابع عشر: أنهم لما امتنعوا من الأكل من طعامه وخاف منهم ، لم يظهر لهم ذلك الخوف ، وأخفاه لكن الملائكة علمت ذلك ، فقالوا: لا تخف وبشروه بالغلام، فجمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب » [٢٥]

يقول ابن القيم :

« ومن **وَضَعَ** دلالة القرآن وألفاظه مواضعها ، **تبين** له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول ، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ... والمقصود بهذا إنما هو التنبيه والتمثيل على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن ، واستنباط أسراره ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »

❖ ❖ ❖

---

١) ص ١٥٦- ١٥٧